مجلة عصور الجديدة- فصلية مصنفة ج- المجلد 11- العدد 2 (جوان) 1442هـ/2021م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

الشيخ بوعمامة في آخر أيامه -بحسب تقارير فرنسية لسنة 1907-

Sheikh Bouamama in his last days - according to French reports for the year 1907 -

اسم ولقب المؤلف المرسل: عبد القادر خليفي- Khelifi Abdelkader ص441-471
الدرجة والعنوان المهني: أستاذ متقاعد- قسم التاريخ وعلم الآثار- جامعة وهران1- الجزائر.
البريد الإلكتروني: khelifi.abd2009@yahoo.fr

تاريخ إرسال المقال: 2021/03/05 تاريخ المراجعة: 2021/04/04 تاريخ القبول:2021/04/26

الملخص: بعد أن عاش الشيخ بوعمامة أكثر من عشرين سنة وهو على ظهر جواده مجاهدا حينا ومنتقلا حينا آخر من مكان إلى آخر، ها هو قد بلغ السبعين من عمره، وها هو المرض ينهش جسمه المتعب من طول العناء والغربة عن الأوطان والهجرة من مكان إلى آخر؛ فلم يبق له سوى البحث عن مكان آمن، والتفكير في ذويه وأتباعه المتعبين من أجل وضع مستقر يعيشون فيه حياة عادية كبقية الناس، بعد أن فشلوا في تحقيق هدفهم في هزيمة العدو الغاصب للوطن وطرده من البلاد عامة. زاره -وهو في هذه الحالة- ضابط وطبيب فرنسيان، وكتب كل منهما تقريرا عن تلك الزيارة وما شاهداه وما لقياه من الشيخ بوعمامة في مقره الأخير بعيون سيدي ملوك بالمغرب الأقصى.

كتب الضابط الفرنسي عن لقائه بالشيخ ومحاورته إياه بخصوص الهدنة بين الطرفين فيما كان يدعى بـ "الأمان". ووصف حالة الشيخ المعنوية والجسدية، كما وصف مخيمه ومحتوياته ونواياه تجاه فرنسا، وعبر عن مقترحاته للتفاهم بين الطرفين. أما الطبيب الفرنسي فقد كتب هو أيضا تقريرا طبيا عن الحالة الصحية للشيخ والتي وصفها بالخطيرة، بعد أن كشف عليه وعرف نوع المرض الذي يشكو منه. كما وصف حالة الشيخ وهو يتنقل بين خيمته وخيمة الضيوف التي كان الطبيب مستقرا فيها.

الكلمات المفتاحية: الشيخ بوعمامة؛ الضابط الفرنسي؛ الطبيب؛ الحالة الجسدية للشيخ؛ المرض؛ الارتعاش؛ الحوار.

Abstract: when he was twenty years old, Sheikh Bouamamaused to riding along onhorseback, wrestling and to moving from place to place . However,

after reaching the age of seventy, he suffered a disease that weakened to very large measure his body. This situation was a result to the long suffering and alienation from his homeland, and the migration from one place to another. After failing in defeating the usurping enemy of the homeland and expelling him from the country in general, Sheikh began to look for a safe place and provide his family and his supporters with stability. In his last residence atAiounSidiMallouk in Morocco, Sheikh was visited by two French, one was anofficer and the other a doctor, and each of them wrote a report on what they saw and what they encountered from sheikh Bouamama. Initially, the French officer wrote about his meeting with the sheikh and his discussion about the truce between the two sides, a process that has been called later 'El Aman'. In addition to that, he described the emotional and physical condition of the sheikh, his camp and its furniture,his intentions towards France, and his proposals for reaching a compromisewith the colonizer. As for the French doctor, after examining and diagnosingthe type of illness he complained about,he provided a medical report inwhich he described the Sheikh's state of health as dangerous. He also described the sheikh's condition as he moved fromhis tent to the guests' tent, in which the doctor was staying.
Keywords: Cheikh Bouamama; the French officer; the doctor; the physical condition of the sheikh; the disease; the tremors; the dialogue

مقدمة: كان الشيخ بوعمامة قد أعلن الجهاد ضد القوات الفرنسية ابتداء من سنة 1881، حيث انطلقت حركته من بلدة مغرار التحتاني -التي كان قد حل بها سنة 1875 كمقدم للطريقة الشيخية- وذلك في المنطقة الجنوبية الغربية من الجزائر. وقد شن عدة هجمات على القوات الفرنسية، وفي الوقت نفسه، طاردته هذه الأخيرة بدورها وتتبعته من مكان إلى آخر، مما اضطره إلى مغادرة الجنوب الوهراني –كما كان يُسمَّى- ليتجه إلى منطقة دلدول(قصر أولاد عبو) التابعة لولاية أدرار حاليا، والتي استقر بها لاجئا بين سنتي 1883 و1894.

كانت القوات الفرنسية تتقدم باستمرار للسيطرة على الجنوب الجزائري بأكمله، وكان وجود الشيخ بوعمامة في منطقة توات وقورارة عاملا معرقلا للمشروع الفرنسي الاستعماري، في الوقت الذي لم يكن الشيخ قادرا على المواجهة؛ لذلك سارع إلى مغادرة المكان في اتجاه الأراضي المغربية. وقد مر، وهو في طريقه إلى المغرب، ببلدة بني ونيف المدينة الجزائرية الحدودية، ومن هناك دخل بلدة فكيك المغربية الحدودية، ولم يجد مبتغاه من الأمن والطمأنينة في هذه البلدة، لأن وجوده هناك شكل خطرا على السلطة المغربية، التي

كانت تحاول إيجاد سبل السلام مع الجار الفرنسي الجديد والقوي؛ كما أصبح يمثل مشكلا للفرنسيين لأنه سيستمر في إرسال الهجمات وإقامة الكمائن للقوات الفرنسية. أما بالنسبة إليه فإن وجوده على أطراف الحدود الجزائرية سيسهل له العمل براحة، وهو في بلد آخر بعيدا عن مراقبة الفرنسيين.

وأمام هذا الوضع لم يجد الشيخ من وسيلة سوى الاتجاه إلى الشمال الشرقي المغربي بعد أن جاءته رسائل الجيلالي الزرهوني المدعو "بوحمارة" حينا و"الروقي" حينا آخر،(في ديسمبر 1902). تدعوه للوقوف معه في ثورته على السلطان المغربي مولاي عبد العزيز، مدعيا أنه مولاي امحمد الذي سلبه أخوه عبد العزيز حقه في عرش أسلافه العلويين، متهما إياه بالتقرب من الأوربيين أعداء الدين وتقليدهم في كل شيء. وقد وافق الشيخ بوعمامة على طلب الروقي وأرسل إليه ابنه الطيب رفقة الأمير عبد الملك ابن الأمير عبد القادر، الذي جاء لزيارته لمعرفة قدراته، كي ينضم إلى حركته المقاوِمة للاستعمار الفرنسي. وانتقل الشيخ بمحتويات زاويته المتنقلة ليقترب من الروقي في الشمال الشرقي المغربي بين مدينتي وجدة وتازة. خاض الشيخ عدة معارك ضد السلطات المغربية وقوفا مع الروقي الزرهوني ابتداء من سنة 1904، في الوقت الذي لم ينس جهاده ضد السلطات الاستعمارية في الجزائر؛ التي كان يرسل إليها بين الحين والآخر مجموعات من السرايا و"الغزْواتْ" الموجهة ضد المراكز المعزولة أو بنصب الكمائن للقوات الفرنسية المتنقلة، كما كان يغير على القبائل الجزائرية التي قبلت الخضوع للفرنسيين.

ولكن دوام الحال من المحال، لقد هرم الشيخ ودخل جسمه المرض، فحاول أن يجد يداً أخرى تمد له يد السلم والمهادنة. في هذا الوقت كان الفرنسيون قد حلوا ببلدة عين بني مطهر المغربية منذ سنة 1904 ثم احتلوا مدينة وجدة سنة 1907، في الوقت الذي كانت السلطة المغربية في سبات عميق أمام موجة التوسع الاستعماري الذي بدأ ابتلاع الأراضي الإفريقية منذ مؤتمر برلين في 1885/1884، وكانت البلاد المغربية من أواخر البلدان التي تنافست عليها قوى أوربية كبرى منذ مطلع القرن العشرين في مقدمتها القوة الفرنسية الموجودة في الجزائر المجاورة.

وهكذا بدأت الزيارات بين الطرفين لحل ما علق بينهما من قضايا محلية، وكان للموقف الفرنسي المتمثل في إطلاق سراح سي الطيب ابن بوعمامة أثره الكبير على اعتراف

الشيخ للفرنسيين بالجميل وبخاصة وأنهم هم الذين أخرجوه من السجن المغربي بعدما تم القبض عليه في 9جوي 1905.

استغل الفرنسيون هذا الحدث للتقرب من الشيخ ومحاولة إبعاده عن التدخل ضدهم وهم يتقدمون لاحتلال الأراضي المغربية. وجاءته الوفود للاطلاع على حالته ومعرفة مواقفه، وفي هذا المجال كانت زيارة ضابط وطبيب فرنسيين لزاوية الشيخ في عيون سيدي ملوك سنة 1907 موضوع المقال. وقد قام الجنرال ليوتي بجمع تقريري الرجلين وإرسالهما إلى الحاكم العام بعد أن قدم تعليقا مُهما عن التقريرين مبديا رأيه في علاقة الفرنسيين بالشيخ بوعمامة (27 جوي 1907). فأما الأول منهما فهو للنقيب قوتيه والثاني للطبيب فوبير. وقد كُتب كل من التقريرين بالآلة الكاتبة وعلى وجه واحد من الورقة. وكما هو معروف تكتب تسمية الجهة الصادر عنها في أعلى الصفحة الأولى، على اليمين بالنسبة للغة العربية وعلى اليسار بالنسبة للغة الفرنسية، لذلك فقد كتب في تقرير الضابط ما يلي(على اليسار): قيادة فيلق الجيش التاسع عشر. قسم وهران. دائرة مغية. وكتب في تقرير الطبيب فوبير: المستوصف الفرنسي لوجدة. وفي وسط أعلى الصفحة كتب تاريخ كتابة التقرير (10 جوي 1907 للأول و15 جوي 1907 للثاني)، أما عنوان التقرير فقد كتب أسفل التاريخ بقليل: جاء في تقرير الضابط الفرنسي ما يلي: "تقرير النقيب قوتييه رئيس شؤون الأهالي بمركز بركنت، معار في مهمة بوجدة، في موضوع زيارتي لزاوية الشيخ بوعمامة." وجاء في تقرير الطبيب ما يلي: "تقرير الطبيب فوبير من المستوصف الفرنسي بوجدة، في موضوع زيارة بوعمامة يوم 9 جوي 1907." أما عدد الصفحات فهو خمس صفحات عند الضابط واثنتان عند الطبيب. وانتهى التقرير بتوقيع كل منهما باسمه.

أما الهدف من هذه الدراسة فهو الاطلاع على أحوال الشيخ بوعمامة في ذلك الوقت بعد أن غابت الكتابة العربية لظروف قاهرة، هذا من جهة، ومن جهة ثانية نود معرفة الموقف الفرنسي من الشيخ في ذلك الحين ومدى أهمية العلاقة بين الطرفين في الفترة التي كان الفرنسيون يتوسعون في الأراضي المغربية في مطلع القرن العشرين تمهيدا لما سيفرض من نظام الحماية على الشقيقة المغرب.

تقرير الضابط قوتيه(Gauthier)[1]: قوتيه، ضابط فرنسي قائم بمهام مسؤول الشؤون الأهلية بمركز بَرْكَنْتْ –على الحدود الجزائرية المغربية- وملحق بمهمة في مدينة وجدة. عُين

بالمركز المذكور في جانفي 1906، وبمجرد تعيينه استغل كل الظروف التي أنشأها الفرنسيون مع الشيخ بوعمامة لتطبيقها ميدانيا.

وها هو يتحدث عن زيارته للشيخ بوعمامة، التي قام بها في شهر جوان من سنة 1907، ويذكر في هذا المجال أن العلاقة ببوعمامة أصبحت أكثر فأكثر ليونة رغم وجود عداء تجاه أهل الزاوية، تبعتها أجواء من السلم، مما سمح بإنشاء قرية بركنت وتنظيم السوق بها. ويعيد الضابط الفرنسي العلاقات الحسنة مع الشيخ بوعمامة إلى ما قام به الفرنسيون تجاه ابنه الطيب، حين أخرجوه من الأسر المغربي، باعتباره رعية جزائرية خاضعة للفرنسيين، وأدخلوه الأراضي الجزائرية.

ويذكر أن الشيخ دعاه للقدوم إليه في الزاوية، معتذرا هو عن القدوم إلى المركز الفرنسي بسبب الحالة الصحية السيئة التي تمنعه من ذلك، ولأسباب سياسية فإن الضابط الفرنسي لم يكن واثقا تماما من دعوات الشيخ، ويتساءل عن سر هذه الدعوة، إن كانت مجرد مناورة من الشيخ، ويضيف أنه ومع ذلك كانت السلطات الفرنسية تحتفظ بالعلاقات العادية معه. كما يذكر الضابط نفسه أن هناك تيارا معاد للفرنسيين داخل الزاوية يحاول التأثير على بوعمامة وإقناعه بأن الفرنسيين سيستغلون الظروف للعودة إلى المواجهة الحربية، ويذكر أن الفرنسيين منحوا الشيخ الأمان له وللمحيطين به. وعن حالة الشيخ الصحية يذكر أن محيطه يذكر دائما بأنه في صحة جيدة،[2] بينما الواقع أنه في حالة ضعف، ويصعب عليه التنقل من مكان إلى آخر. وسنتتبع التقرير بحسب المواضيع الواردة فيه مرتبة:

1- يوم 27 جوان: قام الضابط قوتييه بزيارة بوعمامة في زاويته بعيون سيدي ملوك، بعد أن سمح له القائد الأعلى بقبول الدعوة الموجهة إليه من قبل الشيخ بوعمامة، وقد صحبه كل من الضابط المترجم سيكار(Sicard) والقايَدْ عزيز ولد قدور، كما صحبتهم مجموعة حرس من الخيالة من "قوْمْ" بني واسين. يقول: أقلعنا في الساعة الرابعة صباحا من مخيم "القوم"،[3] حيث قضينا الليلة، حتى لا نعطي لسفرنا أي إشهار. وصلنا إلى كركور اليوندي، الموجود على مسافة خمس كيلومترات من واد بورديم في الساعة 11.30 صباحا. وجدنا في انتظارنا بعض أقارب بوعمامة، وهم من قياد الزاوية مع فرقة من "القوم" تتكون من 350 حصان.. قادونا إلى الزاوية في مخيم بالقرب من واد إيرسان (Irsane) على بعد كيلومترين

شرق قصبة سيدي ملوك. كان الفرسان مصطفين في مدخل المعسكر، وقد أطلقوا النار ترحيبا بوصولنا.

ويضيف: عندما نزلنا من على الخيول -بالقرب من الخيمة التي جُهزت من أجلنا على بعد خطوات من خيمة بوعمامة-[4] رآنا بوعمامة فقدِم إلينا ماشيا، ولكن بألم، متبوع بـ"خُدامه" وهم في حالة استعداد لمساعدته في حالة السقوط. رحب بنا بوعمامة وصرح أنه مسرور بمجيئنا، وأن هذا اليوم هو يوم مبارك، وأن أمله خاب في أننا لم نقدم إليه بالأمس، لأنه بعث "قومه" أمامنا. وأهدانا جوادا ورجانا قبوله؛ ثم اعتذر لعدم بقائه معنا أكثر، وانسحب إلى خيمته مكلفا أخاه وأبناء عمومته بالاهتمام بنا.

وفي الساعة الرابعة جاءنا بوعمامة من جديد وجدد لنا الترحيب، لكنه لم يبق سوى بضع دقائق، إذ لم تبق له قوة. وعلى الخامسة تم إحضار كرسيه في خيمتنا، وكان الشيخ محاطا بمجموعة من رجاله، وبحضور الجميع، عبر عن رغبته في السلام، وصرح لنا بأنه جاء للحصول عليه، وأعرب عن رغبته الشديدة في ذلك، وأخبرنا أنه جاء بنية بناء زاوية في عيون سيدي ملوك، وأنه سيعيش في سلام، وأنه سيطرد كل من لا يستمع إلى توجيهاته. وصرح لنا أن هناك في محيطه "جماعة" لا تريد سوى إثارة الاضطرابات، وأنه لن يضمن الذين لا يسمعون نصائحه. وقد حضر جلسة الحوار هذه، أهم الزعماء من التيار المعارض لبوعمامة. ويشير الضابط أن بوعمامة طلب منه إرسال طبيب إليه ليفحصه، وبعد فترة عاد بوعمامة إلى مسكنه. وقد نجح اللقاء من أجل استتباب الأمن بين الطرفين، وأضاف الضابط- بعد أن طلب من الشيخ قائمة بأسماء محيطه ليشملهم هذا السلم- قائلا: "أرسلَ إلينا ابنَ عمه الشيخ بلحرمة ليقول لنا أن القائمة سيتم إعدادها هذه الليلة، وستكون عندنا غدا صباحا، وأن بوعمامة لن ينام حتى تتم كتابة القائمة."

2- يوم السبت 29 جوان: يذكر الضابط الفرنسي أنه غادر الزاوية مع رجاله في الساعة السادسة صباحا، وقد جاء بوعمامة ليودعهم ويشكرهم قبل مغادرتهم المكان، وقد سلمه رسالة لتسليمها للجنرال وقائمة اسمية برجاله. وعند العودة التقوا بالقايد بوسوار -قايد المهاية- الذي وعدهم بإحضار القائمة بـ 130 خيمة التي هي معه، وتعهد لهم بالانضمام إلى هذه التهدئة نهائيا مثلما وعدهم في بركنت في شهر مارس الأخير. وقد دخل الضابط الفرنسي

وجدة في الساعة الثامنة مساء بعد أن تم استقباله من قبل المهاية المقيمين في سيدي موسى.

3- حالة بوعمامة الصحية: يصف الضابط الفرنسي الشيخ بوعمامة قائلا: "بوعمامة ذو قامة متوسطة، يحمل لحية رمادية، يصعب تحديد سنه، لكنه وفي غالب الظن في 67 من العمر، وهو عاجز عن السير إلا بخطوات بطيئة وهو مسند على عكاز... يتكلم ببطء، يصعب فهمه أحيانا، مصاب بارتجاف عصبي من الرجل واليد اليسرى. يجد صعوبة في رفع يده إلى وجهه. وقد صرح للضابط الفرنسي أنه لم تبق له قوة، وهو يشتكي من طنين في الأذن. كما أنه لا يستطيع القيام بمفرده في حالة جلوسه أو نومه. وقد صنعت له عائلته كرسيا به مكان لوضع الرجل، مما يجعله يظهر وكأنه في حالة وقوف، وهو لا يستطيع الصعود وحده. يعاني من صعوبات أثناء النزول، وتتم مراقبته باستمرار عندما يتجول. حالته الصحية تجعل من الصعوبة تنقل الزاوية من مكان إلى آخر. ليست له القدرة على البقاء على ظهور الخيل وهو يفضل المشي. لذلك يقضي المسافة سيرا في مسافة نصف قطرها 2 إلى 3 كيلومترات كحد أقصى حول القصبة.5

4- مكونات الزاوية: تحتوي الزاوية حاليا على حوالي 100 خيمة مقسمة على الشكل التالي:

- خيام العائلة، وتشمل مخيم الشيخ الخاص، وهو محاط بزريبة من نبات الدفلى وبها خيمة كبيرة لإعداد الطعام للزوار- خيمة بوعمامة الخاصة بلالة ربيعة (زوجته)- خيمة سيد الطيب (ابنه)- والعديد من الخيام التي تحيط بممتلكات الزاوية- وهناك خيمة كمسجد- وخيمة كمدرسة للأطفال- وخيام الخدام التي يسكنها الطلبة و"الفقْرا"- لا توجد كلاب في خيام الزاوية فعليا. يخيم الأنصار جماعات على مسافة 5 أو 600 متر على طول واد إيرسان.
- أما الزوا[6] فمخيمهم في جهة معينة على مسافة 3 كلم من الزاوية في اتجاه بني بوزقو.

5- قصبة عيون سيدي ملوك: عيون سيدي ملوك بلدة صغيرة تقع في شمال شرق المغرب في مقاطعة تاوريرت، غير بعيدة عن الحدود الجزائرية، وعلى بعد 100 كم جنوب البحر الأبيض المتوسط، على الطريق السريع الذي يصل فاس بوجدة. أما القصبة فهي الآن عبارة عن أطلال، تحتوي على مقبرة بشكل مستطيل على مساحة تمتد بين 80 متر طول و50 متر عرض، بأبراج طويلة ذات إشارات. لم يكن لها سوى بابين: أحدهما في الواجهة الشرقية

والآخر في الواجهة الغربية. وفي الداخل بنيت منازل للسكن ومسجد بالمئذنة ومنخفض حيث يسكن الباشا، وقد تم تدمير كل ذلك ولم تبق سوى بقايا أطلال.

تقرير الطبيب فوبير (Foubert)[7] : فوبير طبيب العيادة الفرنسية بمدينة وجدة، قام بزيارة الشيخ بوعمامة يوم 9 جوي من سنة 1907، بطلب من هذا الأخير لعلاجه. وموافقة مفوض الحكومة الفرنسية بوجدة لفحصه وتقديم العلاج له. انطلق الطبيب من وجدة يوم التاسع من شهر جوي صباحا قاصدا الزاوية التي وصلها حوالي الثانية بعد الظهر، وهو وسط عدد كبير من الفرسان جاؤوا للسلام على سي الطيب الذي حضر لزيارة والده. استقبلته عائلة بوعمامة كلها، مرحبين به ومعبرين له عن امتنانهم واعترافهم بالجميل تجاه فرنسا التي أرسلت إليهم سي الطيب- كما يذكر الطبيب-

ويذكر أيضا أنه استقر رفقة القايد عزيز من بني يزناسن في الخيمة المعدة للضيوف، وبعد حين من الانتظار جاء بوعمامة مستندا على اثنين من عائلته، ليتم تقديمنا له. ويضيف الطبيب أنه حظي بأحر استقبال، وأن بوعمامة كرر له عدة مرات ترحيبه به. ومن خلاله رحب بالقايد عزيز، وعبر له عن تشكراته تجاه فرنسا التي سمحت له برؤية ابنه؛ هذا الأخير الذي وصل على الفور وارتمى على قدمي والده يقبلهما، وانفجرا الاثنان بالبكاء. وبعد قليل انسحب الشيخ وهو متعب قليلا على إثر هذا اللقاء المؤثر جدا رغم بساطته. وفي الأمسية جاء المريض، وترجى الطبيب أن يفحصه. ومن جهة أخرى يذكر أن بوعمامة مصاب بمرض الشلل والارتعاش والاعتلال العصبي العام، ولذلك تأثير على السير البطيء للغاية، ويؤدي إلى العجز المطلق.

ويقول إن بوعمامة لا يستطيع الوقوف في المكان لحظة واحدة، إلا وهو مسند على عكاز أو مسند من قبل آخرين، وأنه يعاني كثيرا عند التنقل من مكان إلى آخر. يجلس لحظات على أريكة كبيرة من خشب جيء بها إليه. وبعد كلمات يتحرك مرة أخرى. أما التفكير لديه فهو صاف دائما، لكن التعبير يظهر أنه يتطلب مجهودا، مما يجعل المريض يشكو من الضعف والأرق. لا يظهر عليه مخاوف فورية، لكن المهمة المتأثر بها من غير المحتمل أن تتحسن، مع ضعف جسدي وفكري. يذكر أنه "من خلال اللقاءات التي تمت فيما بعد مع المريض، لم يتوقف هذا الأخير عن التعبير عن أفضل المشاعر، مكلفا إياي بإلحاح تدخل

السلطات الفرنسية للحصول على إطلاق سراح أربعة أشخاص، هم في سجن تطوان منذ ثلاثة أشهر، وقد وعدته بإيصال طلبه."

يذكر الطبيب أنه خلال إقامته بالزاوية كانت له المناسبة -مساعدة الممرض بن زرين (Ben-zerien) كمترجم- بمعالجة عدد من المرضى، يقدر عددهم بـ 200 شخص في مجموعهم. ولاحظ أنه دُعِي للضيافة لدى عدة دواوير في محيط زاوية بوعمامة، وأنه كان محاطا بكل الاهتمام المرغوب فيه، هو ومعه القايد عزيز الذي كان الاحتفاء به بمثابة ثناء على فرنسا، وبالعكس هناك تيار معاكس ذو شعور بـ"الحقد العميق" ضد فرنسا. وعند العودة إلى مدينة وجدة- والطبيب لا يزال في دوار أولاد أحمد إبراهيم- جدد بوعمامة عن طريق ابنه وأحد أقربائه كل الشكر للطبيب شخصيا ولفرنسا، طالبا منه إبلاغ السلام باسمه إلى السلطات الفرنسية، وأهداه هدية تتمثل في بغل، مع اعتذاره بأن الظروف الحالية لم تسمح له ليفعل أفضل من ذلك.

تعليق ليوتي على التقارير الموجهة إلى الحاكم العام في الجزائر: تمكنا من الوصول إلى تقرير للجنرال ليوتي- قائد إقليم وهران- الموجه إلى الحاكم العام للجزائر، والمرفق بتقارير فرنسية وردت إليه من جهات تابعة له، من ضمنها التقريرين السابقين. والتقرير صادر من وهران ومؤرخ في 27 جوي 1907، تحت عنوان: "وثائق متعلقة ببوعمامة،" عن مصلحة شؤون الأهالي والموظفين العسكريين، ويتضمن التقرير الوثائق التالية:

- تقرير النقيب قوتييه حول زيارته لبوعمامة.
- تقرير الدكتور فوبير حول زيارته لبوعمامة ومعالجته.
- نسخة من الرسالة الموجهة من بوعمامة إلى ليوتي.

وقد أبدى الجنرال ليوتي مجموعة من الملاحظات للحاكم العام، جاء في بعضها: ... كم هي مسألة بوعمامة دقيقة ومعقدة، ولا شيء يمكن القيام به باستخفاف وعجل. وإذا كان من الفائدة الكبيرة إنشاء طريقة عمل مع بوعمامة من جهة، والحفاظ على علاقات جيدة معه من جهة أخرى، فإنه لا يجب أن ننخدع، كما لا يجب إعطاؤه دون الأخذ منه، ولا التضحية بمصلحة أساسية. ويضيف في هذا الصدد: أخشى أن تكون رسالة وزير الشؤون الخارجية المؤرخة في أول جوان تحت رقم 45 متسرعة بعض الشيء؛ باعتبارها جاءت قبل الأوان بخصوص المزايا العظيمة للوضعية، وعن المالية التي ستخصص لبوعمامة. كان من

رأيي، وبحسب نظرك أيضا، أن لا يقوم النقيب قوتييه بزيارة بوعمامة، وقد تم ذلك نتيجةً لسوء الفهم. وفي ظل الظروف التي لا لزوم فيها للعودة إلى الوراء، فإن الزيارة تمت قبل وصول تفويضي، بعد أن ظن المقدم ريبل أنه يمكنني القبول والموافقة على التفويض الذي طلبه.

ويقول: كما قلت لك- سارت المقابلة على ما يرام، فقد تم حفظ ماء الوجه قدر الإمكان. وقد سلم بوعمامة القائمة التي طلبتها منه بعد طلبه الأمان[8] له ولعائلته وللمحيطين به. لقد طلب منا إرسال ابنه إليه والسماح له بالاستقرار في المنطقة المجاورة. وإذن يجب الحذر حتى تكون هيبتنا ومصالحنا بعيدة عن كل هذا. ويؤكد الجنرال للحاكم العام أن الحالة الصحية لبوعمامة وصلت إلى نقطة النهاية وما هي إلا قضية وقت. إنه حدث خطير، يجب أن نُحَضر أنفسنا عن ما ذا سنفعل من إجراءات في حالة ذهابه. ويضيف أن بوعمامة موجود في زاويته بعيون سيدي ملوك وبالنواحي المجاورة على بعد 50 كم من وجدة وعلى بعد 32 كم من تافوغالت، أي على اتصال سريع بفرقنا. إذن فالعيون نقطة مهمة... وبسبب وضعيتها على باب دخول تازة وفي مركز الاتصالات مع بني زناسن شمالا وبني بوزقو جنوبا، نستطيع أن نقيم فيها السوق المقترح في الاتفاقية. ويضيف لقد استطعنا كسب حياد بوعمامة منذ سنتين. وهو لا يزال يتمتع بحضور كبير، ولكنه لم يعد قادرا على القيادة، وأفكاره مفقودة ومؤامرات حاشيته بائنة.

وينتقل ليوتي بعد هذه الديباجة ليستعرض التقارير واحدا بعد آخر، مبديا ملاحظاته حول ما جاء في كل واحد منها. ويقدم لذلك بما يلي: بالاطلاع على هذه الوثائق واحدة بعد أخرى، التي أُسَفرها إليك سريعا، وها هو ما أشير إليه:

1- حول تقرير العقيد غوتييه (Gauthier): يلاحظ ليوتي بأن قوتيه يُصِر في تقريره على العداء الموجه ضد فرنسا في الزاوية، كما يشير في قوله بأن "الاهتمام الذي نبديه للقضاء عليه يتم من خلال إجراءاتنا الطيبة مع "المرابط"،[9] ولأن قوتييه يطلق عليه "حزب فرنسا"، يعتقد ليوتي أنه لا يوجد "حزب فرنسا" على الإطلاق في الزاوية، وأنهم جميعا يكرهوننا. ومع ذلك هناك جزء من الناس يرغبون في التزام الهدوء بوجودهم السلمي تحت حمايتنا، ربما لربح الوقت فقط، وهناك حزب المتعنتين.

ويشير بأن معظم الرجال المؤهلين للزاوية مثل بوعلام، الذي يبدو أنه أحد أكثر الشخصيات نفوذا، والذي ستنتقل إليه "البركة" في حالة وفاة بوعمامة؛ هو أكثر عدائية، لذلك يعتقد ليوتي "أن قوتنا هي الشيء الأكثر أهمية في الوقت الحاضر، وذلك لأنهم يشعرون بأنهم عالقون بين مواقعنا ومجموعاتنا المتحركة، وعلى أيديهم تتم الموافقة لفتح الحوار."

2- حول تقرير الدكتور فوبير (Foubert): يلاحظ ليوتي وهو يبدي رأيه معلنا أنه "لا يرى أي مانع في اتخاذ خطوات للإفراج عن المعتقلين الثلاثة المحتجزين في تطوان."[10]

3+4- حول رسالة بوعمامة إلى الحاكم العام وإلى ليوتي: يتدخل ليوتي لينبه الحاكم العام وليثير انتباهه إلى الفقرة ما قبل الأخيرة من كلا التقريرين، عندما يسأل: "لا يشعر بالإحباط في توقعه بشأن الأشخاص الذين يلجأون إليه وتحت رعايته." ويعلق ليوتي: أعرف جيدا ما الذي يعنيه، إذ أن الطيب أخبرني في مقابلته معي عند عودته، ووضحه لي بكل دقة. إنه سؤال لم يطرح من قبل على رجال قبائلنا وعلى القبائل المغربية الواقعة تحت نفوذنا، والتي ستلجأ إلى الزاوية هربا من سلطتنا. إلا أن هذا سيخلق ملجأ حقيقيا ضد الحدود، ملجأ كل المنشقين عنا ومن جميع الأصناف، كلهم يريدون الهروب، إما هربا من أحد القياد أو من ضباطنا أو هربا من دفع الضريبة. وهذا من شأنه أن يجعل الإدارة وكل ممارسة للسلطة مستحيلة في جميع أنحاء المنطقة. وحيث سيتعين على الناس الذهاب إلى بوعمامة، يجب أن نكون شديدين في هذا المجال.

ويضيف أنا لا أدعو، بأي حال من الأحوال، إلى الرجوع عن سياستنا والتوقف عن تطوير علاقاتنا مع بوعمامة وتكوين طريقة عمل سلمية مؤقتة معه، ولكن علينا التحفظ حتى لا ننخدع... وأن الإبقاء على قوات عسكرية في المنطقة وفي بلدة بَرْكَنْت بالخصوص هي من الأولويات، وهي الضمان الوحيد للتصرفات الجيدة من قبل الزاوية تجاهنا. وينهي ملاحظاته بالقول: أخلص إلى القول أنه ينبغي تأجيل مسألة الإعانة المالية المقترحة من وزارة الخارجية والمقدرة ب 20000 فرنك لبوعمامة،[11] لأن هذا سيكون سابقا لأوانه وغير مبرر. أولا لأن تأثيره لا يستحق كل هذا العناء، وعلى العكس من ذلك فإن مثل هذه المعاملة التي تفوق ما يقدم لأي شخص، سيتم تفسيرها –ولدي اليقين التام بشأن ذلك- من قبل السكان الجزائريين والمغاربة على أنه كان سيفرض علينا، ولكن ليس من الضروري أن يتم

بأي ثمن، فبوعمامة لم يعطنا شيئا بعد. وعندما يكون قد أعطى شيئا ما، سوف نرى ما يجب علينا القيام به، ولكن بشكل تدريجي.[12]

التعليق على تقريري الضابط والطبيب: نلاحظ، من استعراض محتوى التقريرين، بعض التشابه من خلال ما يلي:

1- طلب الشيخ من الضابط الفرنسي قوتييه صاحب المركز الفرنسي في بركنت ومن طبيب المصحة الفرنسية في وجدة الحضور إليه في زاويته، معتذرا لهم عن عدم استطاعته القدوم إليهم لمرضه، وهذا من أجل التفاوض فيما يهم الطرفين من جهة، وعرض نفسه على الطبيب لمعالجته من جهة ثانية.

2- قيام النقيب العسكري والطبيب الفرنسيين بزيارة الشيخ في زاويته قبيل سنة واحدة من وفاته، وكتابة كل منهما تقريرا عن تلك الزيارة، مما أفادنا عن الحالة الصحية للشيخ في ذلك الوقت، واستفادته هو من العلاج حتى وإن كان من الخصم لشدة الحاجة إلى ذلك.

3- ميل الشيخ إلى السلم مع الفرنسيين، وطلبه لما كان يسمى آنذاك بـ "الأمان"، نظرا للظروف المحلية والدولية السيئة من حوله.

4- سوء حالة الشيخ بوعمامة الصحية وتدهورها إلى أقصى حد؛ مما يعني نهاية حركته الجهادية.

بعد هذا سنبدي ملاحظاتنا في هذا التعليق على التقريرين المذكورين من جانبين: جانب سياسي وجانب صحي، وكلا الجانبين يتعلقان بحالة الشيخ بوعمامة موضوع التقريرين، وسنتوسع لنستعرض الوضع في المنطقة منذ دخول بوعمامة الأراضي المغربية اعتمادا على بعض التقارير الفرنسية الأخرى وعلى بعض الروايات الشفوية التي كنا قد جمعناها في عقد التسعينيات من القرن العشرين.

1- الأوضاع السياسية في المغرب الأقصى في مطلع القرن العشرين: كان السلطان عبد العزيز قد تولى السلطنة في المغرب سنة 1894 بعد وفاة والده الحسن. ولم يكن سنه قد تجاوز(14 عاما)، فتولى السلطة الصدر الأعظم ابَّ أحمد(أحمد بن موسى) تسيير الأمور بَدَله، أما مولاي عبد العزيز فلم يتول السلطة فعليا إلا بعد وفاة الوزير في 13 ماي من سنة 1900، ولكن دون تجربة سياسية، في الوقت الذي كانت القوى الكبرى تتصارع على بلده

لاحتلالها وتقسيمها بينها. كما كثرت الاضطرابات والثورات في الداخل، ووجد السلطان نفسه وسط دوامة من المشاكل الداخلية والخارجية.

لقد كانت السلطات المغربية تشهد حالة من الفوضى والضعف أمام قوات أجنبية تتربص بها؛ ففي طنجة توجد قوات الدول الكبرى تلاحظ تقدم فسادها وتنتظر الوقت المناسب لاقتسام الغنائم. ففرنسا يمثل لها احتلال المغرب إكمال توسعها في منطقة شمال إفريقيا بعد احتلالها للجزائر، وهناك إسبانيا المستقرة منذ القرن الخامس عشر في تطوان وسبتة ومليلية والتي تتمنى التوغل إلى الداخل، وهناك إنكلترا بسياستها التقليدية التي لن تترك أحدا يستقر في مواجهة جبل طارق الذي تسيطر عليه منذ مدة. وهناك ألمانيا التي تبحث عن تأثيرها في محور برلين بغداد. وهناك النمسا والمجر وإيطاليا وهولندا والولايات المتحدة. كل هذه الدول تغار من بعضها البعض، وتحرس بعضها البعض. وقد اتفقت في مؤتمر مدريد سنة 1880 على الانتهاء من السلطة الشريفية بالمغرب، وأن لا تسمح بأي حق تفضيلي لأي دولة أجنبية مهما كانت.[13]

يذكر المؤرخ روم لاندو أنه "منذ سنة 1900 أخذ العالم يراقب المأساة المضحكة، ألا وهي تحطم مَلِك أثبت أنه أضعف من أن يقاوم العوامل الهدامة التي وجد نفسه فيها، بالرغم مما قيل عن قوة شخصيته. وتلت ذلك فترة إسراف لا حد لها، واستدانة وطيش، فترة كانت أقرب إلى مسرحية هزلية، مع أن النتيجة الحتمية لها كانت أقرب إلى المأساة اليونانية."[14] وبوفاة السلطان الحسن في 1894 وتسلم الحاجب أحمد بن موسى مقاليد السلطة في بداية عهد السلطان مولاي عبد العزيز، استمرت الضغوط الأوربية لفتح قنصليات لها بمدينة فاس، حيث اتحدت مواقف الدول الأوربية في هذا الشأن خاصة فرنسا وألمانيا.

في هذا الوقت وفي هذه الظروف يحل الشيخ بوعمامة القادم من الجنوب الجزائري لاجئا إلى الأراضي المغربية، فهل كان لوجوده أثر على تلك الأوضاع؟ هذا ما نحاول الإجابة عنه فيما يلي من الصفحات.

1- خطر بوعمامة على السلطات الفرنسية: مَثلَ وجود الشيخ بوعمامة في الشرق المغربي خطرا واضحا على السلطة الفرنسية في الجزائر من جهة وفي الأراضي المغربية من جهة أخرى.

أ- خطره على الأراضي الجزائرية: شكل وجود بوعمامة على الأراضي المغربية خطرا يجب تلافيه بكل الوسائل من الوجهة الفرنسية. ولذلك تم التعرض له في اتفاقية الجزائر المنعقدة بين السلطتين المغربية والفرنسية في 20 أبريل 1902، وتوافق الوفدان على ضرورة إبعاده عن منطقة الحدود، وبعد حين قامت السلطات الفرنسية بالسيطرة على بلدة راس العين التي ستسمى بعد حين مدينة بركنت، وذلك سنة 1904 لقطع الطريق على بوعمامة والروقي. لم يكتف بوعمامة بمحاربة السلطة المخزنية بالمغرب بوقوفه إلى جانب الروقي-بوحمارة، بل واصل جهاده ضد الفرنسيين في الجزائر عن طريق إرسال "الغزْوات" والهجمات على المراكز الفرنسية ومهاجمة القبائل الجزائرية الخاضعة لهم في الجنوب الغربي الجزائري.

في هذه الفترة كان الجنرال ليوتي هو الحاكم العسكري في الجنوب الغربي الجزائري في الفترة ما بين سنتي 1903-1906، والذي عينته السلطات الفرنسية للقضاء على الاضطرابات والفتن في تلك المنطقة، وبخاصة اعتمادا على تجربته في مواجهة ثورتي الهند الصينية ومدغشقر سابقا.

إذا تصفحنا تقارير هذا الجنرال ورسائله إلى مسئوليه وزملائه وإلى أخته، سنجده ساخطا على الوضع في الجنوب الغربي الجزائري، معترفا بعدم سيطرته عليه. يقول في مراسلة بتاريخ 14 نوفمبر 1903 ما يلي: "يبدو أن أبا عمامة هو الذي يجب أن نعزو إليه جميع همومنا وما نعانيه دائما من مضايقات، فموقفه موقف واضح العداء منذ مدة طويلة."[15] ويضيف معلنا بصراحة قوة بوعمامة في قوله: "لئن كان بوعمامة شخصية أسطورية، فإنه كان أيضا مقاوما عنيدا ومكافحا صنديدا، يرتدي برنوسه الصوفي ويجتزم جزمته كفارس من فرسان الصحراء المغاوير، تلك الصحراء التي استهام بها."[16]

ب- خطره على الفرنسيين تجاه الأراضي المغربية: كان بوعمامة وأتباعه يمثلون خطرا أشارت إليه الكتابات الفرنسية. ففي إحدى رسائل الجنرال ليوتي يتضح ذلك، حيث يذكر أنه يوجد بالقرب من مراكزهم ملجأ للمتمردين والحاقدين، وأن المكان أصبح مركزا لتجمع كل العناصر السيئة في المنطقة، وبخاصة بوجود قصبة مُقواة، أصبحت بسرعة في أيديهم كإشارة خطيرة على الوجود الفرنسي. وأن الفرنسيين عندما يقيموا السوق بالعيون يجب توفر قوات عسكرية التي من المصلحة عليهم تحاشيها. وأن الحل الجيد هو مساندة سي الطيب الذي وعد الفرنسيين بالتعاون معهم، بإعطائه الوسائل للحفاظ على العيون

بكيفية دقيقة، وقد أشار ليوتي بأنه من الضروري الإسراع في إقامة سوق بالعيون. وكان الاقتتال الذي وقع بين السلطة المغربية من جهة وجند الروقي وحليفه بوعمامة من جهة أخرى، قد عطل التجارة بين المغرب والجزائر وأخر إحداث سوق مشتركة في راس العين، كما نص على ذلك اتفاق الجزائر.[17]

ويبدي ليوتي تخوفه من تغير الوضعية في حال وفاة بوعمامة، لأن الجهة الخصم لن تُضَيع بكل تأكيد أي يوم، لذلك يجب الإخطار بالوضع في الحين، ويقترح ليوتي مجموعة من الإجراءات:

أ- إبعاد فكرة الاحتلال الدائم للعيون من قبل الفرق الفرنسية حتى لا يتهم الفرنسيون بمد الاحتلال الذي قد يؤدي إلى مراجعة أو طلبات لتسوية الحسابات.

ب- إقامة سوق العيون بمجرد وفاة بوعمامة بدعم منا، أي تثبيت سوق العيون... بالتعاون مع السلطات المغربية في وجدة.

ج- في حالة إعلان سي الطيب عدم تملكه للسلطة الكافية لتثبيته، هنا لا بد من استقدام قوتين عسكريتين إحداهما من تافوغالت والأخرى من وجدة، وتكون الأخيرة برفقة قوة من الشرطة المغربية تحت قيادة مغربية لتدعيم هذا المرفق، مع عدم الاستقرار هناك، بل البقاء بعض الأيام الضرورية لجعل سي الطيب يمسك بالوضع. ويمكنهم ترك بعض "القوم" من الأهالي فقط ينخرطون من البلد نفسه، مكلفين بضمان شرطة السوق وأطرافه مع حرية تنقل القوافل.

د- كل هذا يكون متطابقا تماما مع الاتفاقية المعقودة، ولا يؤدي إلى أي صعوبة في المبدأ والمعارضة. (التوقيع لـ: ليوتي)[18]

2- آراء بعض الضباط الفرنسيين الآخرين في الموضوع:

أ- يذكر **الضابط قاكيار** (Gaquière) أنه في بداية سنة 1904 غادر بوعمامة مناطق الجنوب- حيث يقوم بالعمليات حتى الآن- وصعد نحو الشمال ليتصل بقوات الروقي، مقتربا من الحدود الجزائرية، في هذا الحين رأى ليوتي الفرصة المناسبة ليضع حدا لنشاطاته دون طلب تعليمات من أحد، وبعث بطابور إلى بركنت للاستطلاع تحت قيادة العقيد هنري (Henrys)؛ وبركنت هذه تقع في الأراضي المغربية في عين ماء هي راس العين، وهي النقطة الوحيدة لوجود الماء في المنطقة.[19] ويشير الضابط الفرنسي نفسه إلى الخطر الذي يمثله

بوعمامة، ويقول أنه في 4 ماي 1904 ظهر عامل جديد بدخول بوعمامة -عدونا القديم- الذي جاء لخدمة الروقي عن طريق تأثيره الديني وحرمته وجنوده. وأن ابنه سي الطيب انضم إلى الروقي منذ مدة، وأن بوعمامة استقر في رقادة الموجودة بين قبائل رقادة وبني يعلى، في الوقت الذي كان بوحمارة- الروقي موجودا بقواته في قصبة مْسون، والذي أعلن مسيرته القادمة نحو فاس(العاصمة).[20]

ويضيف هذا الضابط أن هدف بوعمامة أو الروقي في بداية الصيف من هذه العملية هو نشر سلطتهما على بربر شمال الظهرة: أولاد عمور- أولاد بختي- بني بوزقو- بني يعلى- زكارة؛ حيث ناصر قسم منهم المخزن. والهدف الثاني خدمة قبائل السهول فيما بعد، والمتمثلة في: أولاد سيدي علي بوشنافة وأولاد سيدي محمد بن أحمد وبني قيل وبني مطهر. وهذا يشكل خطرا على الفرنسيين لقربه من الحدود، وبخاصة وأن مخطط الرجلين معادٍ لفرنسا. وأن استقرار الرجلين في راس العين يهدد ملحقة العريشة (تلمسان) ودائرة مشرية (النعامة)، ويفسر الضابط ذلك بقوله أن الروقي يحارب التأثير الأوربي في ثورته على السلطان، وبوعمامة لم يتوقف عن تزويد أعدائنا بواسطة الشعامبة مثلما حدث في حصار تاغيت (17 أوت 1903) وفي معركة المنقار (2 سبتمبر 1903).

ويذكر الضابط قاكيار دائما أن الحاكم العام للجزائر راسل صحيفة (Le Temps) بتاريخ 8 ديسمبر 1904، معلنا بأن الجنرال ليوتي علم في جوان الأخير أن قوات بوعمامة - عدونا القديم- والمدعي بوحمارة اجتمعا غير بعيد عن وجدة، وهما يهددان قبائل حميان في الجزائر، ويستعدان لاحتلال النقطة الإستراتيجية راس العين في المنطقة الحدودية التي تتحكم في الطريقين الأساسيين في المنطقة: طريق الوادي الشارف وطريق الشط الغربي. ويبين ضرورة احتلال المنطقة.[21]

ب- ويوضح **العقيد فوانو** (L.Voinot) أنه "خلال شهر جوان (1904) انتشر كلام بأن قوات للروقي المنضمة مع قوات بوعمامة ذهبت للاستقرار في راس العين لبني مطهر(بركنت)، وهي بذلك ستهدد حميان الخاضعين للسلطة الفرنسية. وأن أحسن طريقة لتفادي العملية – دون شك- هو إمساك المقدمة. لهذا قام الجنرال ليوتي -قائد ملحقة عين الصفراء- باحتلال القصبة المهجورة لبركنت بموافقة الحاكم العام(Jonnard) وأحمد ركينة(عامل وجدة). وبما أن السوق مشترك؛ فإن حضور الفرق الفرنسية في هذه النقطة لم يكن معاكسا لروح

اتفاقية 1902. وقد نفذت العملية بمساعدة قوم حميان ومساندة بعض العناصر من الفرق النظامية. وعلى رأس هذه القوة الاستطلاعية الرائد(Henry) ورئيس الأركان لعين الصفراء، الذي عجل إلى الشط الغربي في اتجاه بركنت.... وفي أمسية اليوم نفسه(15 جوان)، قامت الفرقة الفرنسية الصغيرة باحتلال القصبة والاستقرار بها، لإكمال حماية الأراضي الجزائرية. وقد تم إرسال كتيبة من الزواف إلى ماغورة، في حين كان قوم العريشة يقومون بالاستعلامات. وقد تقوى المركز باستقرار كتيبتين من المشاة وفصيلة مدفعية الجبال في بداية جوان.. ورغم حذرنا فإن رجال بوعمامة جربوا القيام بعدة هجمات....[22].

كان إرسال الطابور الفرنسي من قبل ليوتي، قد سمح للفرنسيين بمراقبة أراض شاسعة، ولكي يغطي ليوتي على هذه العملية، وَعَد السكان من بني مطهر بأنه لن يتركهم لمصيرهم، بل إن فرنسا ستحميهم بطريقة فعالة ضد أي هجوم لبوعمامة أو للروقي. وأصبح الموقع مركز حياة اقتصادية وتجارية مزدهرة في زمن قياسي. فقد افتتحت مصارف وسوق. أما السلطات المغربية فقد رأت في هذا العمل تعدٍّ على أراضيها وخروج على اتفاقية لالة مغنية وعلى اتفاقية مدريد، واحتجت احتجاجا شديدا لدى الدولة الفرنسية.[23]

ج- ومما يؤكد هذه الواقعة ما يذكره أحد الضباط الفرنسيين (**النقيب تولات**) من أن بوعمامة لم يتوقف في أن يكون روح الثورات وأن القضية اليوم هي معه خصوصا. وأنه تم القبض- من قبل القوم التابعة للنقيب- على ثلاثة فرسان من أولاد بلحسن من بني قيل، الذين أخبروه أنهم آتون لإخبار سي علال بأخبار من الغرب، وهي أن بوعمامة كاتَبَ قبائل بني قيل الذين ما يزالون معه ولأولاد أحمد بن عبد الله وبني مطهر والمهاية وأولاد سيدي علي بوشنافة، وهذا بخصوص القايد عبد الرحمن اليوبي؛ قال لهم في رسالته: "إن القايد عبد الرحمن قد باع نفسه لفرنسا، وإذا أردتم انتصار القضية الدينية اهجموا على مواشي القبائل المناصِرة للفرنسيين (...) لقد ذهب ابني (الطيب) إلى السلطان مولاي امحمد، وسيكون ساعدكم مع طابور تحت قيادة ابن الحاج عبد القادر، سنغزو مع بعضنا كل الذين أعلنوا السلم مع الفرنسيين."[24].

د- وفي تقرير من فيرو (**Ferraud**) رئيس الجمهرة وقائد القسم إلى الجنرال قائد المنطقة الحدودية بوجدة، مؤرخ في 10 سبتمبر 1908، يحيطه علما بآخر المعلومات حول الزاوية: بوعمامة في حالة صحية أكثر خطورة، وأن هذه الوضعية قد تقصر وقد تطول. في هذه

الحالة من الضروري مراعاة التعديلات التي قد تخضع لها المجموعة، ويطلب من قيادته مَدَّه بالتوجيهات المراد اتخاذها في هذا المجال. وينتقل الكاتب إلى الحديث عما يسميه بـ "الحزب المعارض"، الذي يمثل عنصر التحريض في الزاوية ضد الفرنسيين، والذي يتكون من:

- بوعلام بن إبراهيم: وهو من أولاد سيد الحاج إبراهيم الذي يعتبر أكثر المشكوك فيهم.
- إسماعيل بن قدور: من أولاد سيد الحاج أحمد.
- القايد مول الفرعة: من أولاد سيدي عبد الحاكم.

وأن هؤلاء الأشخاص الثلاثة من أولاد سيدي الشيخ المُعَينين من قبل الروقي، يخضعون لزعيم يدعى إبراهيم الفيلالي، الذي ليس له شيء مشترك يربطه بالزاوية، وهو يمثل مولاي امحمد في العيون. وأن هؤلاء معارضون للسي الطيب معارضة صماء منذ وصوله. وأن الاعتقاد السائد أنه عند وفاة الشيخ بوعمامة -وتحت تأثير ومؤامرات إبراهيم الفلالي والقياد المذكورين أعلاه- ستحاول قبائل سجعة وبني بوزقو والمهاية وأتباع الروقي، التخلي عن سي الطيب. ويمثل هؤلاء، الذين يدورون في فلك بوعمامة، قوة مهمة، وقد أصبح سي الطيب شخص مشتبه فيه منذ سلوان 1904 خلال أحداث وجدة.

ويدعو صاحب التقرير السلطات الفرنسية الفاعلة إلى ضرورة دعم سي الطيب على نحو فعال، سواء بفرق فرنسية أو بواسطة "قَوْمْ" مدنيين من منطقة الحدود، على أن يكون لهم ارتباط بالزاوية. ويضيف أنه في الحالة المعاكسة إذا ما قمنا باحتلال المنطقة بأنفسنا، فمن الضروري تصور عودة هذه الزاوية التي أعيد تشكيلها، في أي نقطة من الحدود الجزائرية. ويمكننا النظر، فيما أعتقد، إلى احتمال غياب بوعمامة ووراثة ابنه له، إلا أن القوة الدينية لن تكون للسي الطيب، ولن تكون له السلطة السياسية التي كانت لوالده "المرابط الكبير"، وأنه يبدو أن التعهدات والإخلاص الذي قدمه لنا سي الطيب هو الضمان الوحيد الذي يُمْكننا التأكد منه بجدية.

هـ- جاء في برقية صادرة من **إقليم وهران**(Division d'Oran) -مؤرخة في 30 جوان 1908 موجهة إلى الحاكم العام بالجزائر- أن المرسِل استقبل ابن أخ بوعمامة القادم من الزاوية الذي أكد له مرض بوعمامة، وأن هذا الأخير لا يريد البقاء في المنطقة الموجود فيها حاليا، وأنه يرغب في الموت بسلام. ويُعلم الضابطُ الحاكم العام أنه لا يعلم الجهة التي يود

بوعمامة الذهاب إليها، هل هي فكيك أم غيرها من مناطق الصحراء. ويبدي له عدم اعتراضه على تلك الرغبة إذا استقر في فكيك بجوار قبته القديمة تحت مراقبة المكتب العربي لبني ونيف. ويخبره أنه رد على بوعمامة بأنه مستعد لاستقبال طلبه على أنه سيوجهه إلى الحكومة العامة، وأنه سيناقش المسألة بعمق مع ابنه الطيب عند وصوله.[25]

كان الفرنسيون يودون أن يبقى بوعمامة على الحياد فيما يخص قضية توسعهم في المغرب، وقد بذلوا من أجل ذلك جهودا كبيرة، منها التدخل لإطلاق سراح ابنه الطيب من السجن المغربي ثم إطلاق سراحه نهائيا بعد تحويله إلى الأراضي الجزائرية، ومنها الزيارات التي كان يقوم بها بعض الضباط الفرنسيين له، ومنها منحه "الأمان" هو ورفاقه في الزاوية.

3- إنشاء مركز بركنت(عين بني مطهر) سنة 1904 واحتلال وجدة سنة 1907: لبلدة بركنت موقع استراتيجي على الحدود المغربية الجزائرية، فهي تبعد عن مدينة وجدة جنوبا بحوالي 80 كم، وتقع على بعد 36 كم من الحدود الجزائرية. كانت تدعى راس العين، وعندما احتلها الفرنسيون سموها بركنت(Berguent)، وهي اليوم تسمى عين بني مطهر، على اسم القبائل المستقرة بالمنطقة.[26] استقر بها البعض من أولاد سيدي الشيخ(المغاربة)، وصارت ملتقى وسوقا للقبائل الرحل. وقد ورد اسم راس العين في الاتفاقية المبرمة بين السلطات الفرنسية والمغربية في الجزائر يوم 20 أبريل 1902، حيث تمت الإشارة إلى إحداث سوق مشتركة في التراب المغربي براس العين عند قبيلة بني مطهر.[27] وفي 28 فيفري 1904 عقد الفرنسيون اتفاقا مع سكان راس العين من قبيلة بني مطهر من أجل إقامة سوق وضمان شرطة للمنطقة وإمكانية وضع مركز عسكري باتفاق بين الحكومتين؛ وهذا بحضور كل من النقيب جونشاي (Jonchay) القائد الأعلى لدائرة مشرية وسي علال بن الشيخ بن الطيب[28] وبحضور جماعة من نبلاء بني مطهر.[29]

وفي إطار مطاردة ليوتي (Hubert Lyautey)(حاكم إقليم عين الصفراء العسكري: 1903-1906) لبوعمامة، أرسل سرية عسكرية لإنشاء مركز مراقبة في راس العين (بركنت) في شهر جوان من سنة 1904. وقد أثارت القضية ضجة كبرى في المغرب وفي مجلس الوزراء الفرنسي. وقد أصدر هذا الأخير أمرا إلى ليوتي بإخلاء المركز حينا، لكن ليوتي رد على الأمر ببرقية عاجلة من فرع عين الصفراء العسكري إلى وزير الحربية، من بين ما جاء فيها: "..إن وجود فريق المراقبة في راس العين هو وحده الكفيل بكبح قبائل كانت من قبل تشارك أبا

عمامة أهدافه... ونظرا للمواقع التي يحتلها بوعمامة ورجاله الألف، المسلحون ببنادق في التراب المغربي. يمثل تهديدا لحدودنا، إن راس العين هو الموقع الوحيد الذي يمكن أن نصنع فيه فريقا من المراقبين...".[30]

ويوضح ليوتي لوزيره بأن إجراء الانسحاب إذا ما تم من المكان ستكون له عواقب وخيمة، وسيؤدي إلى ارتداد جميع القبائل المترددة التي كسبناها بعد عناء كبير منذ ستة أشهر. وفي رسالة من ليوتي إلى(A.E. Etienne) يفسر له سر احتلاله لراس العين، بأنه يمنع انضمام المزيد من المسلحين إلى جانب بوعمامة والروقي، وأن الوجود الفرنسي سيحصر الاضطرابات في مساحة ضيقة بين البحر من جهة وملوية وراس العين والحدود الجزائرية من جهة أخرى.[31] ويشير الضابط الفرنسي(قاكيار) أن فرنسا لن تنسحب من راس العين إلا إذا ضمن لنا السلطان إرسال قوات كافية على إثر خروجنا. قوات كبيرة وصلبة تحت قيادة ضابط فرنسي للدفاع عن حدودنا والعمل ضد العدو المشترك، ومنع بوعمامة من امتلاك نقطة إستراتيجية من حيث يمكنه تهديدنا بالخطر.

ومما يثبت تخوف ليوتي من هجمات بوعمامة على الجنوب الغربي الجزائري انطلاقا من التراب المغربي ما نجده في رسالته إلى أخته(في 7-1-1905): "خاضت فرقي معركة حاسمة ضد رجال بوعمامة بالقرب من بشار، تركوا على إثر ذلك تسعة قتلى وعددا من الإبل والأغنام.. أصيب منا ثلاثة من رجال السبايس كقتلى واثنين من القوم بعد أن قاتلوا بشجاعة."[32] وفي إحدى رسائله إلى الجنرال هيرسون(Hirson) بتاريخ 9 جانفي 1906 يقول: "خصوم اللحظة هم شعامبة بوعمامة الأوفياء له بالدرجة الأولى الذين يعملون دون انقطاع. وجدناهم في المنقار في 1903 وفي حاسي أوشان في 1904.. هزمناهم، حاصرتهم فرق بركنت في 27 جانفي 1906 بقيادة الرائد(Pein) على حين غفلة في أرض عارية وغنمت جمالهم الـ 600." (ص236-244)، وفي رسالة أخرى إلى أخته أيضا في 3 فيفري 1906، جاء فيها ما يلي: "إحدى فرقي التي أرسلتها إلى بركنت، فاجأت رجال بوعمامة وهزمتهم واستولت على أسلحتهم وعلى ألف بعير، إنه عمل باهر." ص 236.

أمام هذا التطور المتمثل في احتلال بركنت، احتجت إسبانيا وإنكلترا وألمانيا، فكانت الاتفاقيات الثنائية بتبادل المصالح هنا وهناك. ولتوفير التفاهم بين هذه البلدان اجتمع موقعو اتفاقية مدريد، في 14 جانفي 1906 في الجزيرة تحت رئاسة الممثل الإسباني الدوق

ألمظفر(D'ALMODAVAR) حتى 17 أبريل، تم فيه إعلان استقلال السلطان والمساواة الاقتصادية بين مختلف القوى.[33]

أما وجدة المدينة الحدودية فكانت أقرب مدينة مغربية من الحدود الجزائرية، يَسوسها عامل من قبل السلطان المغربي، ظلت تتأثر بهذا الموقع الحدودي طيلة تاريخها. ومنذ احتلال الجزائر سنة 1830، مثلت وجدة ملجأً للثوار وللقبائل الجزائرية الفارة من بطش الاستعمار الفرنسي وملاحقاته. وبالإضافة إلى مدينة وجدة مثلت مدينتا تطوان وفاس مناطق جذب للجزائريين الفارين بدينهم من قوانين الكفر إلى أحكام الإسلام فضلا عن الذين نزلوا في بعض الأرياف المغربية.[34] من أجل ذلك ظلت فرنسا تعتبر نفسها الأحق بالتوسع في الأراضي المغربية المجاورة لها من الجهة الغربية. وقد اقتنعت بأن مدينة وجدة هي الحلقة الأولى لاحتلال المغرب والسيطرة على الشمال الإفريقي كله والقضاء على القواعد الخلفية للمقاومة الجزائرية؛ فقامت بالضغط على المدينة بدعوى ملاحقة العناصر الثائرة ضدها، وبدأت بإقامة مشاريع في وجدة كالفنادق والمقاهي العصرية واستقدام مسيرين لها من الجزائر، وعبَّدَت طريقا لمرور العربات بين وجدة ومغنية.

وكانت الفرصة المواتية لاحتلالها هو مقتل الدكتور الفرنسي موشان(Emile Mauchamps) في مدينة مراكش بعد أن رفع العلم الفرنسي فوق منزله، فهوجم من قبل السكان وتم قتله، وأعدت فرنسا حملة انطلقت من مغنية في 29 مارس 1907 يقودها العقيد فيلينو(Félineau) ويسايرها الجنرال ليوتي، وتم احتلال المدينة دون مقاومة. "ومال بوعمامة إلى مسالمة الفرنسيين بعد الذي رأى من إكرامهم لابنه الطيب واحتفالهم به.... كما لم يجرؤ (الروقي) على خوض معركة واحدة ضد الفرنسيين... في منطقة طالما اعتبرها عرينه وحماه."[35] وهو تمهيد للسيطرة الفرنسية الكاملة على المغرب، التي ستتم سنة 1912 بعد فرض الحماية على السلطان المغربي مثلما حدث مع باي تونس قبل ذلك.

4- عن زيارة الضابط الفرنسي للشيخ بوعمامة وما يدعمها شعبيا: يتوافق ما جاء في التقرير الفرنسي الرسمي مع ما تتداوله الألسن بين خلف الشيخ بوعمامة وخلف رفاقه. حيث يرد في الرواية الشفوية ذكر زيارة ضابط فرنسي للشيخ بوعمامة عندما كان الشيخ مصاب بالارتعاش في يديه. وهذا في عدد كبير من الروايات التي تم جمعها من قبلنا في الفترة ما بين(1995-1999)، جاء في إحداها أن الضابط الفرنسي جاء إلى الشيخ ليرسم معه

الحدود بين الطرفين. وأن رفاق الشيخ بوعمامة ركبوا في قوات من الفرسان وركب الحاكم الفرنسي في قوات فرنسية. ويستشهد الراوي بوالده الحاضر في هذه المقابلة. وأن جند الشيخ اصطفوا على طرفي الطريق ليمر الضابط الفرنسي بينها. وأن الضابط نزع قبعته ليحي الشيخ قائلا: "بُوجُوْ بوعمامة بُوجُوْ بوعمام". والشيخ جالس على الكرسي. ويورد الراوي حوارا بين الشيخ بوعمامة والضابط الفرنسي عن الوجود الفرنسي في المغرب وعن مرض الشيخ واقتراح معالجته، وعن تفسير الشيخ بوعمامة لسبب ارتعاش يده.

ويكرر الراوي مرات عديدة أنه سمع هذا من والده الحاضر، والذي كان صغيرا آنذاك، فقد توفي عام 1380 هجري/1960م، وله من العمر 70 سنة، وكان مقدَّماً للطريقة، لم يكن قد تزوج بعد، ولم يكن يفارق الشيخ أبدا، بل كان ملازما له باستمرار، وقد توفي هنا في دلدول. وكان يرافقه إلى الزاوية -بعد ذلك- الحاج اعْمر صاحب قصبة أولاد عبو التي كان الشيخ موجودا بها خلال لجوئه بالمنطقة.[36]

وتتفق باقي الروايات مع ما سبق ذكره، فتتحدث عن زيارة الضابط الفرنسي للشيخ بوعمامة في زاويته، وتكتفي بذكر الارتعاش في يدي الشيخ، وأن الشيخ رد عن سبب الارتعاش بأن سببه انفلات ضابط فرنسي من أمامه في إحدى المعارك وعدم تمكنه من القضاء عليه.[37]

5- عن الحالة الصحية للشيخ بوعمامة بحسب روايات شفوية: يشير التقريران إلى مرض الشيخ في السنة التي قام فيها الرجلان بزيارته في شهري جوان وجوي من سنة 1907، أي قبل وفاته بسنة واحدة. ويوضح الرجلان نوع المرض الذي أصيب به الشيخ، وهو الارتعاش في اليدين، مما أثر على صحته من حيث الوقوف والجلوس والسير ما شيا وراكبا.

وبهذا يتفق التقريران مع ما يذكره رواة حركة الشيخ بوعمامة الجهادية عن حالة الشيخ الصحية، والتي مؤداها ارتعاش في اليدين في الأيام الأخيرة من عمره.[38] إلا أن الرواية الشفوية لا تكتفي بذكر المرض، بل تذهب إلى أكثر من ذلك لتفسر سبب ذلك الارتعاش – وهو ليس لكبر سن الشيخ أو لمرض أصيب به كبقية خلق الله- بل تفسره تفسيرا وجدانيا. ذلك أن الرؤيا الشعبية لا تصور البطل إلا نموذجا قويا، أي أنها لا تصوره في حالة عجز أبدا. وإذا ما كان هناك عجز فسيكون تفسيره متلائما مع البطولة والبسالة في ميدان المجابهة. ويتلخص تفسير أغلب الرواة الذين تحدثوا عن مرض الشيخ ثم وفاته فيما يلي:[39]

قيام أحد الضباط الفرنسيين بزيارة الشيخ في زاويته، وملاحظته الارتعاش في يدي الشيخ، فيسأله عن السبب ويعرض عليه العلاج؛ فكان رد الشيخ أن سبب الارتعاش الذي أصيب به هو حادثة وقعت له في إحدى المعارك، يسميها بعضهم معركة فندي(1882)؛ حيث حاول الشيخ قتل قائد القوة الفرنسية وهو في حالة انكسار، لكن الضابط تمكن من الإفلات منه، ولم يتمكن الشيخ من إخراج مسدسه، بعد أن حال الرداء بينه وبين سلاحه، وأفلت الضابط الفرنسي من الشيخ. ومنذ ذلك الحين بدأت يد الشيخ ترتجف تأسفا وحُرقة على إفلات الضابط منه. ومنذ ذلك الحين حَرّم الشيخ على نفسه وعلى أبنائه لبس هذا الحايك.[40] وقد تحدثت خمس وعشرون رواية من بين 116 رواية، عن ظروف مرض الشيخ ووفاته. تم جمعها من مواطن عديدة في الغرب الجزائري وفي شرق المغرب الأقصى.[41]

ما تتميز به الرواية الشعبية الشفوية هو وصف الكثير من الأحداث التي يغض التاريخ الرسمي الطرف عنها، وذكر أشياء لا يهتم بها التاريخ، ولكن الناس يتداولونها في مجالسهم، تخليدا لشيخهم وبطلهم المجاهد، رغم ما ينتاب بعض الروايات من مبالغات.

أما الجهات الرسمية الفرنسية التي تحدثت مبكرا عن مرض الشيخ فقد أشارت دراسة نويل (قبائل حميان...) إلى أن الشيخ كان مريضا بالروماتزم في شهر ماي 1906 وهو مقيم دائما في منطقة زكارة، وأن الشعامبة وحدهم مايزالون بجانبه أوفياء له. وأنه كان يخوض المعارك ضد سلطات المخزن في دعمه للروقي.

6- كيف كان يفكر الشيخ بوعمامة: بعد التجائه إلى المغرب، كان على الشيخ بوعمامة التفكير مليا فيما يجب أن يفعل في وضعيته الجديدة، وقلب الأمور على مختلف أوجهها. فالأراضي الجزائرية ممنوعة عليه، لأنه مطارَد من قبل الفرنسيين. وهو في بلد غير بلده الذي يعرفه، والمصلحة العامة تتطلب استقرار الزاوية. لقد شاخ الرجل وتعب من مجموعة تحولات طويلة، وهو لا يملك طاقة كافية لمواصلة الكفاح والتعرض لحياة المخاطرة. وهناك رجاله الذين رافقوه في حله وترحاله وفي حربه ومهادنته، منهم من تعب من الغربة والتعاسة وهم كثيرون، ومنهم من لا تزال حرقة الجهاد والنيل من العدو المستعمر سارية في نفوسهم. فهل يُرضي الطائفة الأولى وهي كثيرة أم يرضي الطائفة الثانية ومنها المقربون منه.

لهذه الاعتبارات تراءى للشيخ رأي جديد هو مهادنة الفرنسيين الذين حلوا ببلدة بركنت الحدودية المغربية سنة 1904، واحتلوا مدينة وجدة سنة 1907. ورغم أن الانضمام

إلى الروقي الثائر على السلطة المغربية قد منحه فرصة البقاء مدة معينة، فقد كان لابد له من تقرير مصيره ومصير رجاله وزاويته بصفة نهائية. وهو في وضعية لا يحسد عليها لكبر سنه ومرضه واكفهرار الجو العالمي في المنطقة التي شهدت تنافسا بين أطراف أوربية متعددة بغرض السيطرة وتوسيع النفوذ. فماذا يفعل بوعمامة في هذه الظروف، وهو في ذلك الجو العالمي المضطرب، ولا يملك طاقة مواصلة الجهاد، لذا رأى أن يبحث عن أمر يضمن لرجاله ولمحيطه الذي كان يسانده الطمأنينة والراحة بعد طول جهاد، وبخاصة وأنه لم يجد مساندة من أحد غير رجاله الأوفياء.

ولذلك حافظت الزاوية على الحياد سنة 1907 حين احتل الفرنسيون مدينة وجدة. فلم يكن لبوعمامة سوى طلب الأمان من السلطات الفرنسية، وقد حصل عليه هو ولكل أتباعه. فقد راسل بوعمامة الحاكم العام يطلب منحه "الأمان" في رسالة كتبها بتاريخ 4 ربيع الأول 1325هـ/17 أبريل 1907، بعثها بواسطة المدعو ميرامون (Miramont) الذي سلمها للجنرال ليوتي، ومما جاء فيها: "...بعد أن تكتب لنا فيه الخير والمهادنة والـ.. وحسن المعاملة وكف الضرر المؤدي إلى الفتنة فيما بيننا وبينكم. وقد ذكر لي ميرامون أن أجعل الخير معكم،[42] فها نحن قبلت (كذا) أن نجعل الخير والموافقة والمهادنة معكم، وقبلت كل ما أتانا به كتابكم والواسطة بيننا السيد ميرامون..."[43] وقد قام ليوتي بإرسال الرسالة إلى الحاكم العام بتاريخ 14 جوان 1907. وقد ذكرنا ذلك فيما سبق عندما تعرضنا للرسائل والتقارير التي أرسلها الجنرال ليوتي إلى الحاكم العام ومعها ملاحظاته.

ولو قارنا وضعية بوعمامة ووضعية الأمير عبد القادر قبل ذلك، لوجدنا اختلافا يسيرا بينهما؛ فالأمير وجد نفسه وحيدا في مواجهة السلطات المغربية غربا والسلطات الفرنسية في الأراضي الجزائرية شرقا، وكل منهما يطارده للقبض عليه أو إبعاده. فلم يكن له من ملاذ سوى التوقف عن المقاومة ومغادرة البلاد رغما عنه. وأما الشيخ بوعمامة فقد وجد الثائر بوحمارة أمامه يعرض عليه الوقوف معه ضد السلطان المغربي، مما مكنه من الاستمرار والبقاء مدة من الزمن. لكنه ماذا سيفعل بعد انهيار قوة حليفه الروقي؟ وماذا سيفعل بعد سيطرة الفرنسيين على الشرق المغربي؟ وبما أن الجهة التي تملك القوة هي فرنسا فقد هادنها، وهو ما كانت تبحث عنه السلطات الفرنسية لتتفرغ لاحتلال المغرب نهائيا. ولكن الأجل عاجله وتوفي في 7 أكتوبر 1908، وخلفه ابنه سي الطيب على رأس الزاوية العمامية

والذي خضع للسلطات الفرنسية. وفي سنة 1910 نصبت فرنسا حامية فرنسية في عيون سيدي ملوك دون أي معارضة.

7- عن وفاة الشيخ بوعمامة: بعد مرض دام أكثر من سنة توفى الشيخ بوعمامة بعد أن أدى واجب الجهاد ضد القوات الفرنسية الغازية للجزائر، ذاق فيها التشرد والمتاعب والبعد عن الأوطان وكثرة الترحال ومواجهة العدو من جهة وأبناء الملة والوطن من جهة أخرى، وقد صبر على البأساء والضراء وانتهى به الأمر إلى اللجوء إلى البلاد المغربية، حيث وافاه الأجل.

وقد أعلنت السلطات الفرنسية عن تلك الوفاة بعد أن جاءها الخبر عن طريق هته البرقية التي أرسلت إلى الحاكم العام بالجزائر: "بوعمامة توفي أمس 7 أكتوبر 1908 عند غروب الشمس. سوف يوارَى التراب اليوم في عيون سيدي ملوك." من الجنرال ليوتي قائد إقليم وهران إلى الحاكم العام للجزائر. وهران في 8 أكتوبر 1908، الساعة 8,10. وقد تمت الإشارة إلى تاريخ وصول البرقية وهو يوم 10 أكتوبر 1908.[44]

كما نشرت مجلة "القضايا الدبلوماسية والكولونيالية" ضمن عددها المؤرخ في 16 أكتوبر 1908 مختصرا عن جهاده، أنهته بما يلي: "مع مرور الوقت أصبح بوعمامة في السبعين من العمر، كانت حياته المتوترة قد أضنته، كما اعتلت صحته، لكن ابنه سي الطيب الذي كان يرافقه أينما حل وارتحل، جسد عزاءه في شيخوخته..." وتتحدث عن وفاته فيما يلي: "يوم 7 أكتوبر 1908 توفى بوعمامة في زاويته الواقعة قرب قصبة عيون سيدي ملوك. وخلف موت "المُشاغب" الشهير صدى مدويا في أوساط الساكنة المسلمة التي كان يحظى بينها بتبجيل كبير نظرا لكفاحه الطويل ضد فرنسا."[45]

ومواصلةً لأخبار نهاية حياة الشيخ نتطرق إلى مكان دفنه ومن قام بتغسيله. فقد ورد في مجال مكان الدفن روايتان متناقضتان، إحداهما لأحفاد الشيخ، تقول إنه دفن في عيون سيدي ملوك، حيث القبة المقامة وسط مقبرة البلدة إلى اليوم(زيارتنا لها سنة 1999).

وأما الرواية الثانية فهي لبقية الرواة، وتقول إنه توفي بعيون سيدي ملوك، وتظاهر رجاله بدفنه فيها، لكنهم في واقع الأمر حملوا جثته ونقلوها إلى بلدة فكيك، ودفنوها بقصر الحمام الفوقاني داخل قبة سيدي الشيخ/ عبد القادر بن محمد. ويعلل هؤلاء سبب نقله لخوفهم من نبش قبره من قبل الفرنسيين. ويصل الأمر بالراوية المسنة بوعامر ميمونة (شاهدة) إلى تسمية حاملي الجثة، وهم أربعة هم الذين حَملوه على ظهر جمل من نوع

المَهْري.[46] وأنها كانت بنتا (أشارت إلى بنت لها 10 أو 12 سنة)، حين كان الناس يبكون ويقرؤون الحضرة. وأنهم "حملوه على جمل نوع المهري، وانطلقوا به ساعة المغرب، وقد أخبر حاملوه (فيما بعد) أن الأرض طويت لهم فوصلوا بلدة فكيك في أقل وقت، وأدخلوه قبة سيدي الشيخ، وأنهم وجدوا القبر محفورا فدفنوه. وحفروا –في المقابل- قبرا في مقبرة سيدي أحمد ماخوخ- في عيون سيدي ملوك، وكان الرجال ملثمون وهم يبكون، وكان ذلك مجرد تمثيلية ليعتقد الناس والفرنسيون بالخصوص أنه مدفون هناك، بينما الواقع أنه دفن في بلدة فكيك."[47]

ويتحدث حفيده حمزة بن عبد الحاكم السابق الذكر عن مرض الشيخ فيؤكد مرضه وعجزه عن الحركة بسبب الارتعاش الذي أصيب به. وأنه كان يخرج أحيانا من منزله في حالة استرجاع صحته، بمساعدةٍ من أحد بني عمومته أو من قبل "الخُدام"، الذين يجلسونه على كرسي، ويتحلق الناس حوله، فيكلمهم ويعظهم ويوصيهم ويسأل عن الغائبين منهم. وفند سي حمزة الروايات القائلة بنقل جثمان الشيخ إلى مكان غير عيون سيدي ملوك، ويجزم بأن الجثمان مدفون في مقبرة عيون سيدي ملوك.[48]

ولن نمر من مسألة وفاة الشيخ بوعمامة دون أن نتحدث عن مسألة تغسيله، اعتمادا على الرواية الشفوية. فقد تمكنا من الوصول إلى ثلاث روايات: إحداها لأحد الرواة الذي غسل والده الشيخَ، وقد كان معلما للقرآن الكريم. والروايتان الأخريان لرجلين شهدا لمعلم قرآن ثان قام بتغسيل الشيخ(مصطفى القاضي بلفقيه)، رواها كل من صهره المتزوج من ابنته والثانية لراو استمع إلى السيد مصطفى نفسه.[49] أي أن الذي غسل جثة الشيخ بعد وفاته رجلان كانا من معلمي القرآن في الزاوية، وبتوصية من الشيخ قبل وفاته، وهما:

1- (الطالب) العربي (ت.1929) والد الراوي ريشاوي (الطالب) محمد، من أولاد قطيب من قبيلة العمور. كان قد تعلم في مدينة فكيك على يد الشيخ أحمد أو جلول بقصر زناقة بفكيك، صحب الشيخ عند توجهه إلى شمال شرق الأراضي المغربية، وكان معلما في المدرسة القرآنية بالزاوية.

2- القاضي مصطفى بن محمد بلفقيه(1874-1955)، كان أحد معلمي القرآن بزاوية الشيخ المتنقلة. صهر الراوي: الخلادي الطيب، وهو من الزوا أولاد بوداود.

ما يمكن **استنتاجه** من التقريرين هو:

- تعرفنا على الحالة الصحية المتردية للشيخ بوعمامة التي وجد الرجلان الشيخ عليها.
- احتفاظ الشيخ بكامل قواه العقلية رغم ما كان يعانيه من أحوال صحية متعبة.
- مدى الاحترام الذي كان الشيخ يحظى به لدى مرافقيه واستعدادهم لمساعدته والوقوف معه.
- عمله على توفير الأمن لرفاقه من حوله بطلب الأمان لهم من الفرنسيين الذين كانوا متحكمين في الوضع بفضل تفوقهم المادي والمعنوي.
- عدم انقياد الشيخ بوعمامة للامتيازات التي عرضت عليه من قبل السلطات المغربية لعدم ثقته فيها وبخاصة منذ اعتقالها ابنه الطيب وسجنه.
- مثابرة الفرنسيين على خدمة بلادهم وقضاء مصالحهم في المنطقة بالقضاء على المناوئين لهم كيفما كانوا أو باستمالتهم أو تحييدهم عن التدخل في مصالح الفرنسيين، واستغلال الوقت المناسب للحفاظ على مصالحهم مما يبرز حقيقة الأهداف الفرنسية باستغلال الظروف المتردية للشيخ لإقناعه بالحياد.
- نهاية حركة الشيخ بوعمامة الجهادية في مواجهة الفرنسيين بتقدم سنه وتردي صحته ثم وفاته سنة 1908.
- وأخيرا انتهت حياة الشيخ بوعمامة في عيون سيد ملوك بالمغرب الأقصى بعيدا عن الأرض التي جاهد من أجلها، وشهد من أجل ذلك حياة مليئة بالتعب والمشاق، وتوفي بعد أن دافع عن الوطن والملة، وأدى شعيرة الجهاد ضد عدو غاصب، استحل البلاد الجزائرية لصالحه، فقتل ونهب واستغل البلاد قرنا وربع قرن من الزمن، إلى أن كتب الله ظهور رجال عاهدوا الله على طرده واسترجاع الحرية والاستقلال سنة 1962، وحققوا ما فشل في تحقيقه رجال كثيرون آخرون طيلة التواجد الاستعماري في البلاد.

مجلة عصور الجديدة- فصلية مصنفة ج- المجلد 11- العدد 2 (جوان) 1442هـ/2021م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

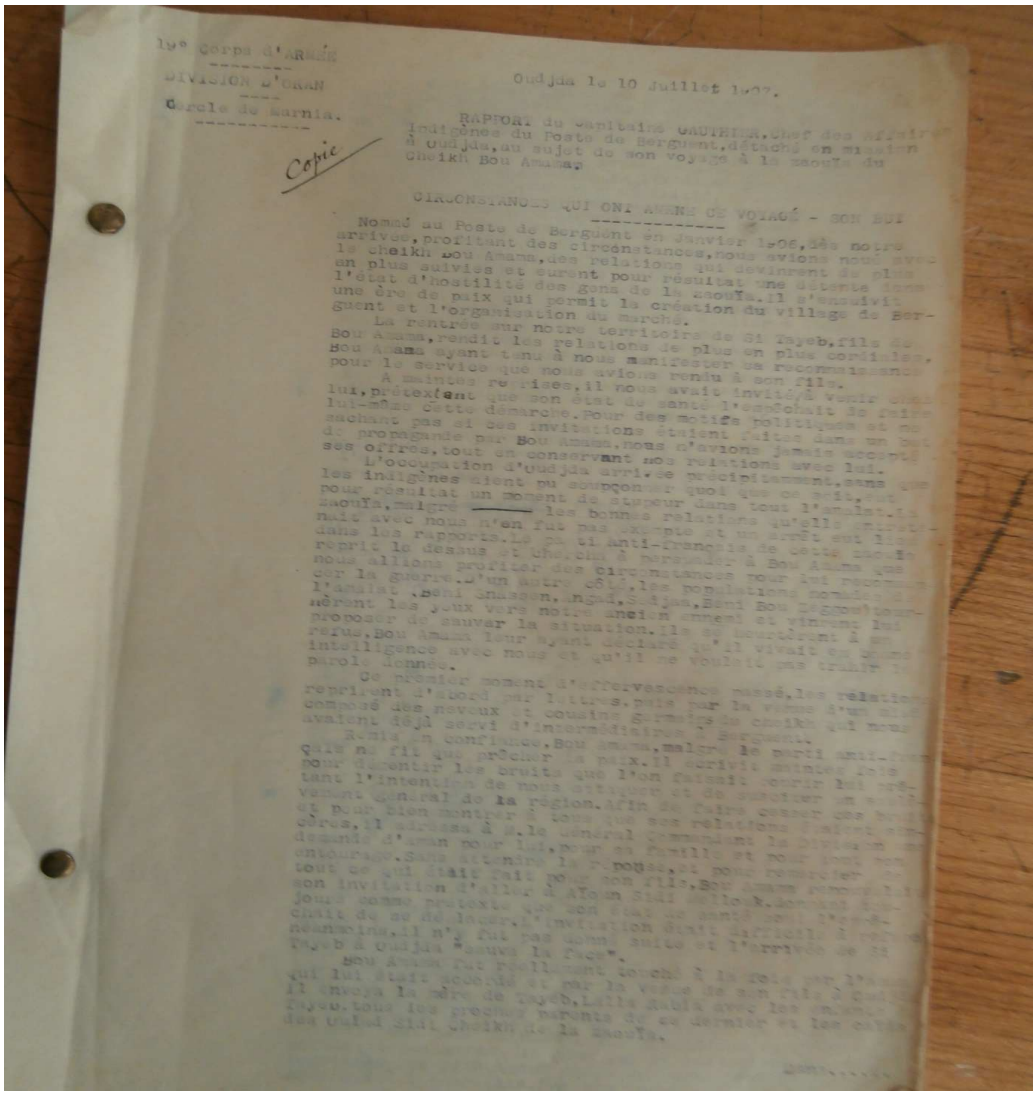

الصفحة الأولى من تقرير الضابط الفرنسي بتاريخ 10 جوان 1907 حول زيارته للشيخ بوعمامة.

مجلة عصور الجديدة- فصلية مصنفة ج- المجلد 11- العدد 2 (جوان) 1442هـ/2021م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

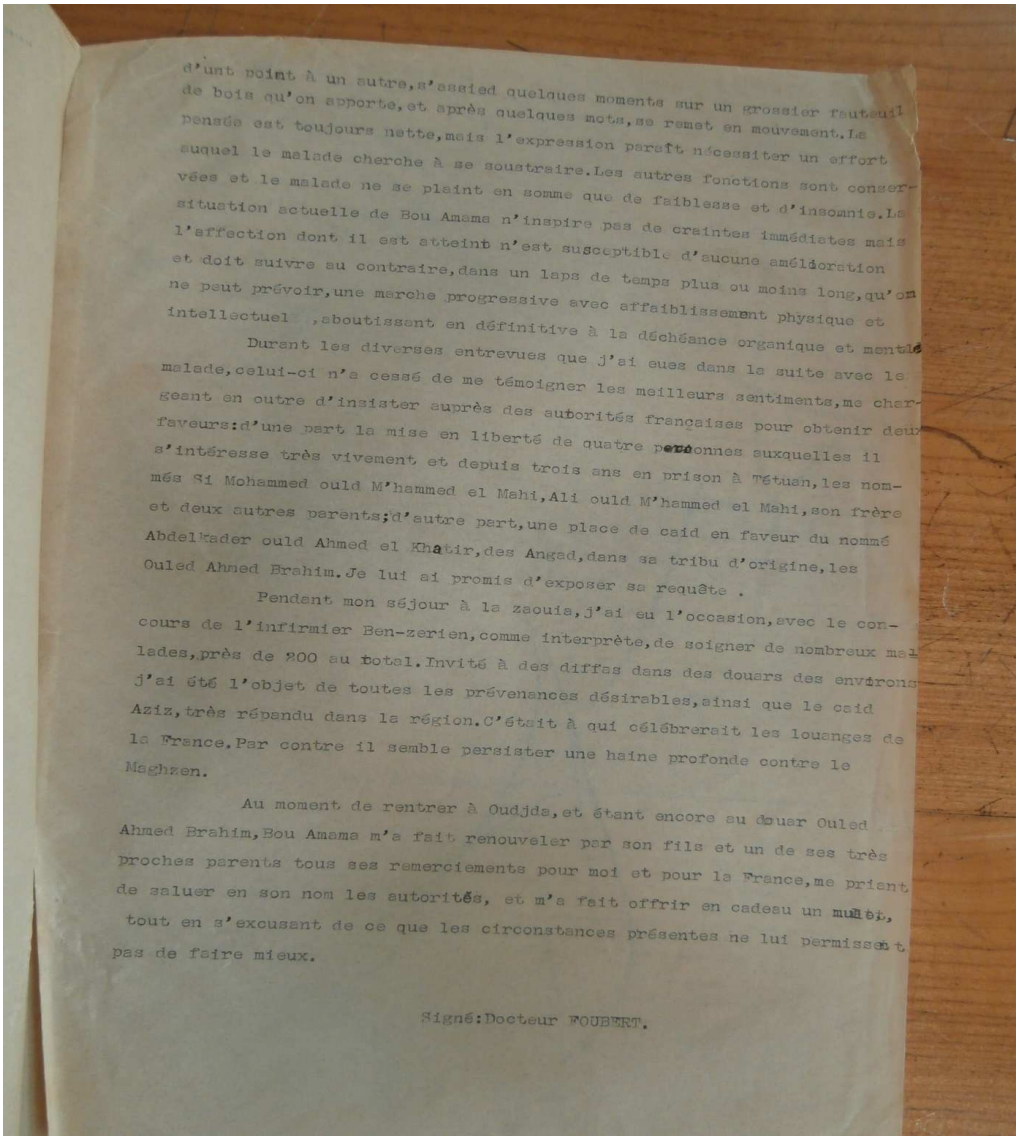

d'un point à un autre,s'assied quelques moments sur un grossier fauteuil de bois qu'on apporte,et après quelques mots,se remet en mouvement.La pensée est toujours nette,mais l'expression paraît nécessiter un effort auquel le malade cherche à se soustraire.Les autres fonctions sont conservées et le malade ne se plaint en somme que de faiblesse et d'insomnie.La situation actuelle de Bou Amama n'inspire pas de craintes immédiates mais l'affection dont il est atteint n'est susceptible d'aucune amélioration et doit suivre au contraire,dans un laps de temps plus ou moins long,qu'on ne peut prévoir,une marche progressive avec affaiblissement physique et intellectuel ,aboutissant en définitive à la déchéance organique et mentale.

Durant les diverses entrevues que j'ai eues dans la suite avec le malade,celui-ci n'a cessé de me témoigner les meilleurs sentiments,me chargeant en outre d'insister auprès des autorités françaises pour obtenir deux faveurs:d'une part la mise en liberté de quatre personnes auxquelles il s'intéresse très vivement et depuis trois ans en prison à Tétuan,les nommés Si Mohammed ould M'hammed el Mahi,Ali ould M'hammed el Mahi,son frère et deux autres parents;d'autre part,une place de caid en faveur du nommé Abdelkader ould Ahmed el Khatir,des Angad,dans sa tribu d'origine,les Ouled Ahmed Brahim.Je lui ai promis d'exposer sa requête .

Pendant mon séjour à la zaouia,j'ai eu l'occasion,avec le concours de l'infirmier Ben-zerien,comme interprète,de soigner de nombreux malades,près de 200 au total.Invité à des diffas dans des douars des environs j'ai été l'objet de toutes les prévenances désirables,ainsi que le caid Aziz,très répandu dans la région.C'était à qui célébrerait les louanges de la France.Par contre il semble persister une haine profonde contre le Maghzen.

Au moment de rentrer à Oudjda,et étant encore au douar Ouled Ahmed Brahim,Bou Amama m'a fait renouveler par son fils et un de ses très proches parents tous ses remerciements pour moi et pour la France,me priant de saluer en son nom les autorités, et m'a fait offrir en cadeau un mulet, tout en s'excusant de ce que les circonstances présentes ne lui permissent pas de faire mieux.

Signé:Docteur FOUBERT.

الصفحة الأخيرة من تقرير الطبيب الفرنسي بتاريخ 15 جويلية 1907 حول حالة الشيخ بوعمامة.

الهوامش:

1- ينظر: الأرشيف الوطني الفرنسي بإيكس-أون- بروفانس. رقم: 30H80 زيارتنا للمكان سنة 2015.----2- من عادة الجزائريين عدم الشكوى كثيرا من المرض، ويكون رد المريض دائما عند السؤال عن حالته بقوله: الحمد لله إنني بخير. والإجابة نفسها يرد بها أهل المريض عند السؤال عن صحته. ويعود ذلك إلى الرضى بقضاء الله وشكره في كل الأحوال من جهة، والتفاؤل ببرء المريض وعدم التشاؤم من مرضه من جهة ثانية.

3- القوْمْ (بتفخيم القاف) في العرف الشعبي هم الفرسان كيفما كانوا. والقومية والقوم في العهد الاستعماري الفرنسي هم فرق جزائرية مجندة مع الفرنسيين لصد ومواجهة أي حركة شعبية معادية لهم.-----4- كانت الخيمة هي مسكن سكان البادية التي يسهل طيها وحملها بسهولة في حالة التنقل، وهكذا كانت زاوية الشيخ بوعمامة زاوية متنقلة حينا ومستقرة حينا آخر. وهو ما يماثل زمالة الأمير عبد القادر في هذا المجال.

5- يقصد بالقصبة هنا: قصبة بلدة سيدي ملوك. وهي بناء عمراني متميز داخل النسيج العمراني المغاير له. والمثال قصبة العاصمة الجزائرية.

6- الزوا: بزاي ساكنة هم أولاد سيدي الشيخ، والكلمة مشتقة من الزاوية، لأن جدهم عبد القادر بن محمد هو مؤسس الطريقة الشيخية والتي مقرها الزاوية. وتحمل اليوم بعض العائلات الشيخية هذا الاسم كلقب لها في الجزائر وفي المغرب(زاوي- بوشيخي.)----7- ينظر: الأرشيف الوطني الفرنسي بإيكس- أون- بروفانس، رقم: 30H80-----8- اطلعنا على تقرير يحمل عنوان: "طلب الأمان لبوعمامة"، من الجنرال ليوتي قائد إقليم وهران إلى الحاكم العام للجزائر يبعث إليه بنسخة من طلب الأمان لبوعمامة وعائلته وللأهالي المحيطين به. وبرفقة ذلك جواب ليوتي على الطلب. ويطلب من الحاكم العام إبداء رأيه في ذلك الرد المؤرخ في 13 جوان 1907.(30H80)----9- يستعمل الكتاب الفرنسيون كلمة مرابط(Marabout) للإشارة إلى رجال الطرق الصوفية وللأضرحة والمقامات المقامة على قبور بعض الصلحاء بحسب المعتقد الشعبي.

10- ذكر الطبيب أسماءهم في تقريره، وهم: سي محمد ولد امحمد الماحي –علي ولد امحمد الماحي- أخوه واثنان آخران من العائلة.

11- كان الوزير الفرنسي للشؤون الخارجية قد راسل الحاكم العام للجزائر بتاريخ أول جوان 1907 مشيرا له -بناء على مراسلةٍ من الممثل الفرنسي في مدينة طنجة- حول التقارب مع بوعمامة، وعن الإجراءات المتخذة في هذا المجال. وأنه من الضروري إبعاد بوعمامة عن الحدود الجزائرية بسبب تأثيره في سكان الشرق المغربي، وإلا السماح له بدخول الأراضي الجزائرية، لكن الفوائد التي يمكن أن يجنيها الفرنسيون أكثر هو استعماله في المغرب. وأن تدخل بوعمامة إلى جانب الروقي هو الذي ضخم من الروقي وأبقاه على قيد الحياة. أما عن المالية فقد ذكر الوزير أنه إذا كان سي علال بن سيد الشيخ يتقاضى 12000 فرنكا سنويا، فإن بوعمامة يحتاج إلى معاش يقدر بـ 20.000 فرنك. ويضيف الوزير قائلا: أنا متأكد من أنك سوف تقدر قيمة الأسباب التي تلزمنا بالاستحقاق، وأن نبحث عن الرجل الذي يمكن أن تكون لمساعدته لنا أكبر الأثر لإنجاز مهمتنا في المغرب. وأننا سنرفض ونعارض كلية إذا لم نستغل الظروف. ولتسهيل الحل الذي أوصي به، سوف أكون على استعداد لفرض جزء من الإعانة الحكومية اللازمة لتكون تحت تصرفكم. ينظر: أرشيف إيكس أون بروفانس(Cote : 30H80)

12- أما ما يتعلق برأي ليوتي في سي الطيب فليس من موضوعنا في هذه الورقة، ولذلك لن نتعرض له في التحليل.

13-Benoist Méchin, Lyautey l'africain, claire fontaine, Lausanne 1966, P :66-67

14- روم لاندو، تاريخ المغرب في القرن العشرين، ترجمة نقولا زيادة، دار الثقافة، بيروت 1980م/1400هـ، ص: 62.

15-Lyautey, Vers le Maroc : Lettres du sud oranais 1903-1906, Librairie Armand colin, Paris 1937, P : 26.----16-IBID. P :29.

17- عكاشة برحاب،المجال الحدودي بين المغرب والجزائر في مطلع القرن العشرين(1900-1912)، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 2002، ص: 110.

18-Lyautey, IBID.----19-Gaquière(Lieutenant) , Berguent(Ras el Ain) 1904-1906, Bulletin de la société de géographie et d'archéologie d'Oran 1913. PP :34-77.

20- كان مقر العاصمة المغربية أولا في مدينة مراكش، "ثم انتقل السلطان عبد العزيز منها إلى فاس، وبارح عاصمة الجنوب أواسط رجب 1319هـ/1901م، واجتاز مدينة الرباط حيث استقر بها إلى ما بعد انصرام شهر رمضان، ثم تابع الرحلة عبر طريق بني حسن فزرهون ووصل إلى فاس أوائل ذي الحجة من العام نفسه الموافق لـ 1902م، وقد حالت ثورة بوحمارة دون رجوع السلطان إلى مراكش، واستمر بفاس إلى قيام الانتفاضة الحفيظية".(**محمد المنوني**، مظاهر يقظة المغرب الحديث، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء 1985، ص: 8.)

21-Gaquière (Lieutenant), IBID----22-Voinot L. Le danger résultant de la présence de Bouamama dans l'amalat et l'occupation de Berguent, Bull. de la S.D.G.A.O, juin 1934. P 182-186.----23-Benoist Méchin, Lyautey l'Africain, Ibid, P.69-70.

24- المقصود بابن الحاج عبد القادر هو عبد المالك بن الأمير عبد القادر الذي كان قد التحق ببوعمامة سنة 1903. وقد نقل عن القايد عبد الرحمن قوله: "إذا أعطاني الله الحياة سأدوس على تربة مراح زاوية بوعمامة." والنقيب تولات هو قائد قوم حميان الذين تم جمعهم في المنقوب. عن:

-Noel A.h. Document pour servir à l'histoire des Hamyan et de la région qu'ils occupent actuellement, extrait de bulletin de la société de géographie et d'archéologie de la province d'Oran, imprimerie Typographique et lithographique, (Chapitre -5- :Cercle de Mecheria)L. Fouque, Oran 1916. P : 41-42 .----30-Ex-en Provence. 30H80----26-Selon la documentation actuellement disponible, Aïn Béni Mathar a connu plusieurs noms suite à des étapes historiques. Ainsi on le connait sous le nom de: Assa- Aioun Za- Ras el Ain- Ras Aioun Béni Mathar- Berguent- Aïn Bni Mathar.

27- عكاشة برحاب، من قضايا الحدود بين المغرب والجزائر، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، المغرب 2003، ص 132.

28- وُلد سي علال بن الشيخ بن الطيب سنة 1862، خلف أخاه سي معمر القتيل في معركة نفيش سنة 1874. ونظرا لصغر سنه كانت القيادة لابن عمه سي سليمان بن قدور الأغا السابق لجيريفيل(البيض) ولحميان، وهو الذي تمرد على الفرنسيين منذ 1873، والذي اغتيل سنة 1883 هو و 12 من فرسانه من قبل قبيلة آيت بوشاون، الذين استضافوه في دوارهم. وهكذا أصبح سي علال الزعيم الفعلي للزوا الغرابة.

29-Gaquière(lieutenant), Berguent (ras el ain) PP. 34-77.

30- للتوسع ينظر عبد القادر خليفي، المقاومة الشعبية للشيخ بوعمامة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 2010، ص157.----31- من إحدى رسائل ليوتي المذكورة أعلاه مؤرخة في 26-10-1904. ص: 124.

32-Lyautey, Vers le Maroc. P :145.-----33-Gaquière, Berguent ...P :85.

34- محمد أمطاط، الجزائريون في المغرب ما بين 1930-1962، مساهمة في تاريخ المغرب الكبير المعاصر، دار أبي رقراق للطباعة والنشر الرباط 2008، ص44.----35- عبد الوهاب بن منصور، أعلام المغرب العربي، المطبعة الملكية، الرباط، 1399هـ1979م.، ج2 ص376.----36- الراوي: حسّني عبد القادر بن أحمد بن مولى عبد العالي، 63 سنة، من أولاد عبو بدلدول ولاية أدرار، فلاح، المقابلة بأولاد عبو في 28 ديسمبر 1995. منها قوله: "أبَّ كان مْقدَّمْ سيدي بوعمامة." ومنها قوله: "هذا الشي وأبَّ حاضَرْ" وقوله: هذا الشي وأبَّ يَسْمَعْ." وقوله: "قال لي أبَّ الله يرحمُه." و: "قال لي الوالد الله يرحمُه إلا سمعتها." و: "أيْوَه سيدي هذا اللي حَكاهانا أبّانَا." أما سن والده فهو تقدير وليس جزما.

37-جاء في بعض الروايات أن الضابط الفرنسي اقترح على الشيخ التوقف عن مناوأة الفرنسيين مقابل إطلاق سراح ابنه، فرد عليه بالرفض وأن على الفرنسيين أن يفعلوا ما يشاؤون في ابنه الطيب. منهم: معاشو الطيب ولد محمد، مواليد 1906، المقابلة في بني ونيف ماي 1995. وبن زيان سعيد بن أحمد مواليد 1928، المقابلة في بني ونيف ماي 1995. وقدوري قدور، مواليد 1931، المقابلة في تيوت عين الصفراء ماي 1995. وبوعمامة حمزة بن عبد الحاكم، مواليد 1917، المقابلة في عين بني مطهر بالمغرب في ماي 1999. أما في الكتابات الرسمية فقد اقترح عليه السلطان المغربي التوقف عن دعم الروقي مقابل إطلاق سراح ابنه لكنه لم يفعل.----38- يعبر عنها الرواة بالعامية كالتالي: (بوهزاز- بوفلاج- الرجيف- التهزاز- الرعشة- الرعادة).----39- تم جمع تلك الروايات خلال إعدادنا لأطروحة دكتوراه الدولة بين سنتي 1995-1999.

40- أبرز الرواة حفيده: بوعمامة حمزة بن عبد الحاكم بن الطيب بن بوعمامة، 72 سنة، شيخ الطريقة الشيخية بعين بني مطهر، المقابلة في زاوية سيدي الطيب بعين بني مطهر بالمغرب في ماي 1999.----41- من بين هذه الروايات، رواية بوعامر ميمونة ابنة عبد الرحمن التي تجاوز سنها القرن سنة 1995، من أولاد سيدي التاج، المقابلة في عين الصفراء في فيفري 1995. توفيت مطلع سنة 1996، والتي تقول إنها كانت "جَدعة" حين كان الناس يبكون حزنا على وفاة الشيخ بوعمامة. ومن ذلك أيضا رواية معاشو الطيب بن محمد(89 سنة)، الذي ولد في مخيم الشيخ سنة 1906، أخبره بذلك المدعو مصطفى بالفقيه نفسه الذي غسل جثة الشيخ. ومنهم بوشيخي الشيخ بن الطيب(88 سنة) المولود سنة 1908 الذي عاش يتيما وتكلف بتربيته أحد مقاديم الشيخ في الزاوية بعين بعيون سيدي ملوك، وهو الذي أخبره الخبر.----42- ترد عبارة "ندير الخير" أو "نجعل الخير" في رسائل الشيخ بوعمامة، وهي تعني الصلح والأمن بين طرفين. هما السلطات الفرنسية من جهة والشيخ بوعمامة من جهة أخرى. وهي تعني في مصطلح ذلك العصر "طلب الأمان".----43- أرشيف إيكس أون بروفانس: (30H 80)

44 - Ex-en-provence 30H80 comm----- 45-Questions Diplomatiques et Coloniales , N° : 280, 16 octobre 1908, p : 34.

عن: سعيد عاهد، الفتان، منشورات جريدة "الاتحاد الاشتراكي"، مطبعة دار النشر المغربية، الدار البيضاء 1903، ص129-130.----46- هم محمد بلعربي ابن عم الشيخ- عبد القادر بن الجودي- الغربي وهو خال الراوية- وأحد العبيد.----47- بوعامر ميمونة المذكورة سابقا.----48- دفنت زوجته لالة ربيعة داخل القبة في مقبرة عيون سيدي ملوك،وقد لاحظت عند زيارتي للمكان وجود كرسي الشيخ داخل القبة نفسها. ونتيجة لاختلاف روايات مكان ضريحه، فلا مجال لطلب نقل جثمانه إلى الجزائر، التي يقول بها بعض الجزائريين.----49- رواية ريشاوي محمد بن العربي، المولود سنة 1908 بعيون سيدي ملوك، المقابلة في بني ونيف في 14 ماي 1995،(ت.1998) وقد قام والده العربي -معلم القرآن في الزاوية- بتغسيل الشيخ. والرواية الثانية لخلادي الطيب بن محمد المولود سنة 1902 المقابلة ببشار في جانفي 1996، صهر (الطالب) مصطفى. والراوي الثالث هو معاشو الطيب بن محمد من مواليد 1906، المقابلة في بني ونيف سنة 1995، الذي هاجر والده مع الشيخ نحو المغرب، أخبره المعلم مصطفى قائلا: "هَذا المَدنيَة اللي غَسّلتْ سِيدِي بوعْمَامَة". والمقصود بالمدنية يده: وهذا تحقيرا لشخصه واحتراما لشيخه بوعمامة.